آفاق عالمية
أكتوبر ٢٠٠١
٤

الهيئة العامة لقصور الثقافة

بلبل واحد لا يصنع ربيعًا
(وقصص أخرى عن الحب)

مختارات من القصة العالمية
ترجمة : د. حماده إبراهيم

- لوحة الغلاف : للفنان العالمى «مارك شاجال»
- التصميم الأساسى للغلاف :

عمر جهان

آفاق عالمية : سلسلة تُعنى بنشر ترجمات مختارة

المراسلات : باسم رئيس التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى - رقم بريدى : ١١٥٦١

مقدمة

للمرة الثالثة، قامت جريدة «فرنسا الأحد»، بالتعاون مع أشهر وأكبر الصحف والجرائد فى ثمانى عشرة دولة، بتنظيم مسابقة فى القصة القصيرة عام ١٩٩١، خصصت لها جريدة «النيويورك هيرالد تريبيون» خمسة آلاف دولار جوائز للفائزين.

وصلت آلاف القصص من مختلف أنحاء العالم للمشاركة فى هذه المسابقة، بعضها لكبار الكتاب، ومعظمها لكتاب مجهولين.

وقد تشكلت لجنة التحكيم من مجموعة من كبار الكتاب فى العالم، فمن فرنسا على سبيل المثال نذكر كلاً من «بيير بينوا»، و«مارسيل بانيول» و«جوزيف كيسيل» من المجمع الفرنسى، وكذلك المدير العام السابق لمسرح (الكوميدى فرانسيز)، ورئيس هيئة اتحاد الكتاب فى فرنسا .

وقد قامت إحدى اللجان العليا باختيار قصتين أو ثلاث أو أربع من كل دولة مشاركة (حسب درجة شعبية الدولة) وهذه

القصص المختارة هى التى دخلت المسابقة، حيث خصصت جائزتان قيمة كل منهما ألف دولار للفائزين الأولين، وأربع جوائز ثانية قيمة كل منها خمسمائة دولار، ثم خمس جوائز أخرى ثالثة قيمة كل منها مائتان وخمسون دولار. بلغ عدد القصص الفائزة أربعاً وخمسين قصة، ومن الطريف أن أمريكا المانحة للجوائز لم تشارك فى المسابقة .

والمصادفة العجيبة التى تبلغ حد المعجزة فى القصص المشاركة أنه تبين أن ثمة قاسماً مشتركاً يجمع بين القصص الفائزة، ولعل ذلك أيضاً ينطبق على جميع القصص التى شاركت فى المسابقة ولم تفز بإحدى جوائزها .

المصادفة أو المعجزة هى أن هذه القصص، مع أنها تنتمى لبيئات جغرافية وثقافية مختلفة وتتوزع على قارات الدنيا الخمس، إلا أنها جميعاً عالجت، بطريقة أو بأخرى، وعلى اختلاف المستويات، موضوع الحب بأنواعه المختلفة .

وإن دل ذلك على شئ، فإنما يدل على أن الحب موجود بشكل أو بآخر فى هذا العصر الذى يوهم بأن زمن العواطف قد ولى إلى غير رجعة، بحجة أن ظروف العصر وإيقاعه لايسمحان بالتلكؤ عند المشاعر الإنسانية الرقيقة .

إننا نكاد نجزم بأن الحب يصبح أكثر ضرورة وأكثر إلحاحاً في مـثل هذه الظروف، فـهـو النور المرشـد في لجج المادة ودياجيرها، وهو الظل الوارف في لفح الصراعات وهجير الآلات، وهو النسمة العليلة وسط أتون المصانع ومخلفات التلوث، كما أن الحب هو المد الدافئ في زمهرير الفراق .

وإذا كان ذلك ينطبق على قصص المسابقة، فهو ينطبق بشكل أقوى على مجموعة القصص التي وقع عليها اختيارنا في هذا الكتـاب، حيث نتنقل بين الحب العـاطفي الذي يقـاوم الزمن في قصة (قصة لم تنشر) ويقاوم التقاليد في قصة (الصندوق) ويقـاوم الموت في قصة (الشـقيـقـان). إلى حب الأرض والوطن الذي يقهر الاستعمار في قصة (القربان)، إلى حب الحياة الذي يتغلب على حب المادة في قصة (خطة محكمة ... ولكن)، ويتغلب على اليأس في قصة (في مواجهة الموت)، إلى حب الأم الذي يفوق الأسطورة في قصة (بلبل واحد لايصنع ربيعاً) .

د. حماده إبراهيم

فى مواجهة الموت

هورست جيرانوالد

(ألمانيا)

منذ فترة وجيزة تمت إجراءات حصرهم، فكان هو سادس من فى الصف، وتطلع إلى العُمد الثلاثة المثبتة فى الأرض على بعد عشرين خطوة منه، ثم حطت عيناه على الوجوه غير المكترثة، وجوه الجنود، ثم حدث نفسه قائلاً :

- ماهى إلا لحظات حتى أموت، وعاد بذاكرته إلى الوراء باحثاً عن شئ يأسف عليه أو عمل يندم على إتيانه، لكن ذاكرته لم تسعفه ولم يجد شيئاً، كل ما هنالك أنه استيقن أن حياته كان من الممكن أن تكون أكثر ثراء، وأنه كان من الممكن أن يعمل أكثر مما عمل .

وتدفقت الذكريات وتزاحمت أشلاء حياة فى نظرة منه خاطفة، وتذكر عندما كان طالبا بالكلية الحربية ثم ضابطا.. أجل كان على حق عندما ترك الجيش، إن الحياة فى نظره يجب أن تكون شيئاً آخر غير تلك، ومنذ تلك اللحظة الماضية لم يستطع أن يتخلص من الشعور بالقلق والسخط، كان يريد أن يمسك بالحياة، فكان يتشبث بها بكل ما أوتى من طاقة وقوة،

وكان يقف ملتاعا مضطربا أمام لجج نفسه متأملاً فوضاها تلك التى كان عليه أن ينظمها .

عندئذ بدأ يكتب، كتب صفحات وصفحات، وظل يكتب حتى نسى الجوع الذى كان يصرخ فى أحشائه، وشيئاً فشيئاً تكشف له مصيره فى وضوح وجلاء. فإذا شخصيته الحقيقية تتراءى له، ويرى أمامه نوراً باهراً يأخذ ببصره، وينفتح أمامه الطريق الجديد، طريقه: لقد عاهد نفسه على أن يجعل من شخصه المدافع عن جميع الأذلاء، والمستضعفين على وجه الأرض، فأخذ يكتب ويكتب بلا انقطاع، كان يضيف السطور إلى السطور وكان كل سطر ينبثق من سيل حياته العارم الذى كان يتدفق فى أعماقه، كان أشبه بالموج الذى طال احتباسه، فانتهى الأمر إلى تحطيم كافة الحواجز التى كانت تحول دون انطلاقه .

لم يعد هناك ما يروعه، لا القانون ولا العرف، كان فى صراع أشبه بصراع الملاك والشيطان وكانت ساحة القتال هى نفس الرجل.

وذات يوم أدرك أنه نال الوطر، وأنه بلغ درجة الحب المجرد عن الغرض، المستعد لجميع ألوان التضحيات، المتأهب لكافة أنواع النضال، وجعل يبحث عن أمثلة سابقة فوجدها فى

المسيح، وأدرك أن الذى صنعوه به، كان عملية لايمكن تجنبها، ومع ذلك فقد واصل السير فى الطريق التى خطها لنفسه .

وذات يوم طلب إليه الناقد (بيلينسكى) أن يمر عليه فى مكتبه، وكان هذا الناقد قد قرأ مخطوطاته، وكان صاحبنا يتوقع كل سخاء من هذا الناقد المعروف بذكائه وتشدده وقسوته، كان يتوقع كل سخاء إلا ماحدث فعلا .

– «آه .. هذا أنت يا صديق.. هل أنت مدرك تماماً ما كتبت؟ أمن الممكن أن تفهم كل هذا وأنت فى سن العشرين؟ إن (ديفوشكين) الموظف بطل روايتك، قد تحول إلى آلة متحركة، ولقد قطع فى هذا الطريق شوطاً كبيراً بحيث إنه وهو فى قمة المذلة والمسكنة لايجرؤ على مجرد (التفكير) فى أنه بائس، ويعتبر أبسط الشكوى دليلا على التفكير الحر المنطلق والوعى الثورى.

«لقد وضعت يدك على الداء من أول وهلة ونفذت إلى قلب المشكلة يجب أن تظل كما أنت صريحاً نحو نفسك، ولسوف تصبح كاتباً عظيماً».

تذكر المحكوم عليه بالإعدام كلام الناقد الشهير فأحس بآخر شعور بالعزة والافتخار، فساعده ذلك فى التغلب على الخوف

والفزع، وأقسم أن يظل صريحاً نحو نفسه حتى أمام الموت وألا ينهار وألا يخضع، كانت تلك رسالته، وكانت تلك الرسالة تستحق أن يضحى من أجلها بحياته .

لم يكن يجهل الجريمة التى قادته إلى هذه الساحة التى ينتظر فيها الإعدام، صباح يوم قارس البرد من أيام ديسمبر، فقد جرؤ على الثورة ضد نظام يتصرف فى البشر وكأنهم قطيع من الأبقار، وحاول أن يتصور أنه بعد دقيقتين أو ثلاث، سيصبح شيئاً هامدا لا حياة فيه، كان من العسير عليه أن يصدق ذلك، وتساءل:

– «إلام يصير حالى بعد إعدامى؟ هل هناك حقاً مايستحق المعرفة فيما وراء هذا العالم؟».

وعلى مسافة مائتى متر تقريبا، كان يلمح أمامه إحدى الكنائس، وكانت قبة الكنيسة مغطاة بطبقة ذهبية اللون تعكس أشعة الشمس، فطفق يتأملها فى إمعان واهتمام كأنما هذه الأشعة تمثل فجر حياة لن يلبث أن يسفر من أجله، أو كأنما عليه أن يذوب فيها بعد لحظة من الزمن .

وصادف صعوبة شديدة، إذ حاول أن يصرف نظره عنها، وعندما حطت عينه على الجنود، نزلت فى قلبه سكينة كبرى،

فكرة واحدة هى التى كانت تضايقه: (آخ لو لم يكن مقضيا على بالموت بعد لحظة، لو أرد إلى حريتى، فما أعظم ما كنت سأقوم به من أعمال.. آه لو حدث ذلك، لجعلت من كل لحظة قرنا من الزمن، ولأحصيت كل دقيقة من عمرى كما يحصى البخيل أمواله، ولوعيت قيمتها وأدركت عظمتها، فلا أضيع ذرة واحدة).

لو قدر له أن يعيش .. لو قدر له أن يعيش لاستطاع أن يقرأ من جديد (بوشكين)، و(جوجول) وسائر الكتاب الآخرين الذين كان يحبهم، ولاستطاع أن يحتسى نبيذ القوقاز، ويتسكع فى شوارع (بطرسبورج)، وعلى رصيف (نهر النيفا)، ولاستطاع أن يقرأ على وجوه الناس بؤسهم وعذابهم .

الحياة أن يكون الإنسان على قيد الحياة أفضل بكثير من أن يرقد جثة هامدة بلا حراك ولافائدة تحت التراب.. أن يفتح عينا شغوفة على الأحداث والناس .

إن الإنسان وهو على قيد الحياة، يشعر بأنه يعضد سائر البشر ويساندهم، ويأخذ على عاتقه مسئولية أعمالهم، ويشاركهم تبعة جرائمهم .

وعندما تصور كل ما سيسلبه الموت إياه، انتابه غضب شديد، وقال لنفسه : (آه.! ليتهم يسرعون بإعدامى). ولكن

سرعان ما روعته هذه الفكرة .

وضغط قبضتيه فى قوة خارقة بحيث إن أظافره آلمت راحة الكفين واضطر إلى بذل جهد كبير لكى يكتم غضبه، كان هو سادس من الصف، إذن فالثلاثة الماثلون عن يمينه (كان لايجرؤ على النظر إليهم) سيموتون أولاً .

وأرهف السمع، فبلغت أذنه الطقطقة التى تحدثها أحذية الجنود فوق البلاط الذى يبس بتأثير الجليد، فالتفت إلى الجهة التى كانت تنبعث منها الضوضاء، فرأى جنوداً أربعة يجتازون الميدان ويتجهون نحو المذنبين، فى إبطاء وهدوء بلا أدنى انفعال أو تأثر .

وما إن أصبحوا على بعد خطوة منهم، حتى توقفوا وصاح أحدهم قائلاً : (رقم واحد واثنين وثلاثة .. اخرجوا من الصف) كان يتحدث من أنفه، وكان صوته كريها بغيضاً .

وغامت نظرته قليلاً عندما رأى الصف يقصر، وسار الرجال الثلاثة يحوطهم الجنود الأربعة، كان يتبعهم بعينيه، فشعر كأنما يجرون أقدامهم جرا، وعندئذ أدرك الخوف المريع الذى يستولى عليهم، ولقد شعر هو أيضاً بالخوف أمام عجز هذه الأجسام التى لن يلبث الرصاص أن يغوص فيها دون أدنى مقاومة أو عائق.

ولقد اضطرب لهذا المشهد أيما اضطراب، فأغمض عينيه وطأطأ رأسه، واجتهد فى أن ينسى ما رآه .

ماذا سيقول التاريخ عن هذا الطالب الذى دفعه الفقر إلى الانصراف عن الدراسة وقتل عجوز مرابية بالبلطة؟ ومن ذا سيتحدث عما اعتمل فى نفسه من تبكيت وصراع عندما تساءل إذا كان قد فعل فعلته كأى قاتل مجرم، أو أنه فى ذلك كان ينتمى إلى أشباه نابليون، إلى تلك الصفوة من الناس التى تملك حق التصرف فى أرواح البشر ومقدراتهم؟

ومن ذا سيصور العواطف التى تعتمل فى أعماق المقامر عندما يسمع طقطقة الكرة فوق طاولة اللعب، وعندما يقبض بإصبعه فى حركة محمومة على أول مكسب له .. ثم عندما تتوالى المبالغ المدفوعة وتختفى تباعاً .. فيزداد عناء المقامر، ثم لايبقى له شئ سوى تلك الكرة التى تتراقص فوق الطاولة وعندما ينتهى ويغادر مائدة اللعب ولايبقى له شئ حتى ولاذرة من نفسه، فيخرج والإبتسامة على شفتيه، يحيى الحارس تحية عابرة قائلاً له : (إلى اللقاء غدا).

ومن ذا سيهتم بمصير الاطفال الذين ألقى بهم بلا رحمة ولاشفقة فى عالم تعد الدماء الجارية فيه مشهداً معتاداً، عالم

لاتعد الرذيلة فيه مصدر خجل أو عار، وإنما تنتشر فيه وتسشترى فى حرية تامة .

وانبثقت فى رأسه رؤيا زاهرة.. رأى نفسه عندما كان فتى جميلا أشبه بالأمير.. كان نبيلا كريما، وكان يقدم للعالم الدليل على طيبة قلبه وحبه الغامر وإيمانه العميق بعظمة الإنسان، كان ينتمى إلى عائلة كريمة وكان الوحل الذى يتمرغ فيه بقية الناس من حوله لاينال من طهره وعفته. أجل .. كان ذلك الفتى سيلقى الاحتقار والازدراء من أترابه.. لكنه كان سيظل يعطف عليهم، بل إن وجوده نفسه فى نظر الجماهير كان أمراً شاذا، كان بالنسبة لها أشبه بتبكيت حى، فاكتفت بادانته وحكمت عليه بالإعدام، كان كل من يصادفه يضعه أمام التجربة، وعندما وجد الناس أنه يقدم لهم الحب بدلاً من السوط، أشاحوا عنه ووصفوه بالأبله المعتوه.

كان المصير الأليم الذى يتعرض له هذا الفتى يسبيه ويفتنه بحيث إنه أنساه لمدى لحظة كل ما كان حوله، وقال يحدث نفسه: (أجل هذا موضوع كنت أحب أن أعالجه بالقلم).

وبلغته صرخة مروعة انتزعته من أفكاره، وما إن رد إلى واقعه الحاضر، حتى شعر بأن العرق كان يتصبب من جبينه

وصدغيه ورقبته، وأن حبات العرق كانت تتسرب إلى ظهره من فتحة الياقة .

واضطر إلى فتح عينيه على سعتهما، لكنه شعر بسعادة غامرة عندما وجد أن ستارا رقيقاً معلقا أمامه يحجب عنه المشهد الذى كان يجرى فى الميدان على بعد خطوات منه.. ومع ذلك فلم يحول عينيه.. وعندئذ شاهد الجنود وهم يقبضون على ذراعى المذنب الأول ويجذبانهما خلف ظهره فى قسوة ووحشية، ثم يقيدون قبضتيه تقييداً محكما، ثم يضغطون ويضغطون حتى اضطر الجسم الذى أضناه الألم والإرهاب إلى أن ينتصب معتدلا، ولاح أن الرجل ينصب قامته عزة وافتخارا، ولقد تكرر هذا المشهد ثلاث مرات، ورأى أن الجنود يعصبون أعين المذنبين ثم يسحبونهم إلى العمد فيقيدونهم إليها فى إحكام شديد بحيث لايستطيعون أن يتزحزحوا فيد أنملة .

حتى ذلك اليوم، لم يكن فكر فى أنوا ع الموت المختلفة، ولقد فات الأوان الآن، فلن يسعفه الوقت لذلك، والرصاصة التى كتب لها أن تضع حدا لنهايته، قد صهرت منذ وقت طويل، كان يراها داخل الجراب الجلدى الذى يعلقه الجنود على صدورهم، قطعة صغيرة من المعدن، مستديرة مصقولة فى مهارة وبراعة .

وعلى حين فجأة، سمع شخصاً يسعل وشاهد الضابط الذى قام قبل ربع ساعة بقراءة حكم الإعدام، يبتعد عن الجنود ويشير بيده إلى القس بالابتعاد عن العمد .

وفى الحال سمع صوتا، صوتا كان يبدو أنه يخرج من عالم الأموات، يأمر الجنود بالاستعداد، وأخذت الطبول تدق خفيفا فى بادئ الأمر، ثم تشتد شيئاً فشيئاً، فاعتقد أن رأسه لن يلبث أن ينفجر.

وإذا بضوضاء الطبول تصم الآذان، وفى هدوء حول رأسه خشية أن يصاب بالجنون لو طال أمد هذا الانتظار .

وخيل إليه أن الضابط ينحنى على أحد جنوده، وخيل له أنه رأى شفتيه تتحركان، لكنه لم يميز أى صوت وشاهد الجندى يندفع نحو المذنبين المقيدين إلى العمد، لكنه أدرك أن الهلوسة تعبث به، وأنه يجب أن يثوب إلى رشده بأى ثمن، ليته فقط يستطيع أن يكف عن سماع ضوضاء الطبول .

ورأى الجندى وهو ينزع العصابة من فوق عينى المذنب الأول، ثم الثانى، أخيراً عصابة الثالث، وبعد ذلك حل القيد الذى كان يربطهم فى العمد والقيود التى كانت فى معاصمهم ودفعهم أمامه، واجتاز بهم الساحة فى اتجاه مضاد، ثم عاد الرجال

الثلاثة إلى أماكنهم فى الصف، لم يعد يحاول أن يفهم، ومكث جامدا فى مكانه، وقد حلت محل عقله فتحة كبيرة سوداء، وكان قد فقد القدرة على الاندهاش، بل حتى على التألم، ولم يفكر حتى فى الصياح أو الهروب وهو لايزال قادراً على ذلك .

وفجأة كفت الطبول عن القرع، وكأنها فقدت كل قوتها، ولم تطلق أية رصاصة، الأمر الذى لم يزد من دهشته .

ثم سمع اسمه متبوعاً بكلمات لم يفهم منها شيئاً لحظة سماعها، وعندما تحرك طابور المذنبين، وانتظم فى صفين، وأدار ظهره للميدان واتخذ طريقه إلى السجن، استعاد صاحبنا جزءاً من عقله وفيما كانوا يمهلون السير لينخرطوا فى منعطف الطريق، لمح رأس أول المذنبين، ذلك الذى كتب له أن يكون أول الراحلين، والذى كان يسير أمامه، وعندئذ كفت ركبتاه عن الارتعاش وإذا به يستعيد الكلمات التى سمعها منذ قليل فكانت: «فيودور ميخايلوفيتش» ينال عفو القيصر ويقضى أربع سنوات فى سيبيريا».

---

* هذه القصة مستوحاة من مذكرات الكاتب الروسى ديستوفسكى .

القــــــربان

نرجس دلال

(الهند)



انطلقت السيارة ناشرة ضوضاءها فوق طريق وعر يغطيه الحصى، وقد علت طبقة من التراب الأسمر أجنحتها وغطاءها وسائر أجزائها التى كانت تتلألأ قبل قليل.. وامتدت الحقول القاحلة الجرداء فى كل الجهات، فى أخاديد متكلسة، حتى سفوح الجبال التى لفتها غلالة من وهج الحر.. غلالة خفيفة كالدخان، مائلة إلى الزرقة .

ولم يكن السيد «تريانا» يكف عن التطلع – وهو فى جلسته المريحة – إلى ما حوله من مناظر تلك المنطقة، لقد قام برحلته هذه كى يرى بلاد الهند، وقد عقد العزم على أن يشاهد منها بقدر ما أنفق على الرحلة.. فرأى المراعى الغنية والروابى الخضراء فى الشمال، وشاهد مزارع الشاى فوق المنحدرات، وزار بعض المعابد والأطلال، ورأى السدود التى أقيمت حديثاً، وها هو ذا يرغب فى زيارة المنطقة التى تجتاحها المجاعة.. وكان حريصاً على التقاط بعض الصور لبعض النسوة الهزيلات، بأثدائهن المدلاة كالقرب، ولبعض الأطفال الذين ضمرت

أعضاؤهم هزالا، وانتفخت بطونهم فى بشاعة تستحق التسجيل، فسوف ينشر هذه الصور فى صحيفته لدى عودته مباشرة.. ولسوف يكون لهذا دوى صحفى مثير، ومن ثم فقد حرص أن تكون الصور بالغة الدقة والوضوح .

أما ركاب السيارة الآخرون، فلم يبد عليهم أنهم يشاركونه قدراً يذكر من حماسه.. على أن هذا لم يكن ليعكر مزاج السيد «تريانا» على الإطلاق، فما من شئ يستطيع أن يصرفه عن غرضه، وكانت الحرارة تنقض عليهم - بلا هوادة - من خلال النوافذ الزجاجية المغلقة.. حرارة لا تكاد تطاق.. وكانت الأتربة تنفذ من بعض الشقوق الخفية - فى السيارة - فتنتشر على جلد المقاعد الفاخرة .

وراحت صغرى السيدتين تجفف العرق من فوق جبينها، وهى مستلقية فى استرخاء على مقعدها الوثير، كانت ذات وجه نضير أملس، على الرغم مما تركه الإرهاق على ملامحها من علامات.. سوداء الشعر، يتراقص فى عينيها فيض من الأشعة الذهبية.. ولعلها كانت فى الثلاثين من عمرها ..

أما السيدة الأخرى - وهى شقيقة السيد «تريانا» فكانت أكبر سنا، وقد تهالكت فى أحد أركان العربة، فاغرة الفم،

متجهمة، تغفو فى نعاس مضطرب، وقد علتها طبقة رقيقة من الأتربة غطت شعرها ووجهها، وعينيها، وتراكمت فوق حاجبيها وأهدابها.. وكأنها أحد مقاعد العربة .. ولم يكن يلوح عليها أنها تدرك شيئاً مما حولها!

وأما السائق، فكان شابا هندوكيا، ذا رسغين نحيلين مرنين، وقد أمسكت يداه الرقيقتان، بيسر، بعجلة قيادة السيارة الضخمة، وأخذتا توجهانها دون جهد واضح، وكان هو الشخص الوحيد الذى لم يعان من وطأة حرارة الجو. ولقد كان يعمل ضابطاً من قبل، وقد أعير للسيد «تريانا» طوال فترة الرحلة على أن يقوم – فى نفس الوقت – بدور المرشد والمساعد، ولم يكن يفتح فمه على الإطلاق، اللهم إلا ليشير فى عبارات موجزة إلى ماهو مثير فى تلك المنطقة، من مواقع!!

ومال نحوه السيد «تريانا» قائلاً :

– اسمع يا «بريتام»! ابحث لنا عن ركن نستطيع أن نتوقف فيه لتناول الغداء، أحب أن أصيب شيئاً من العطام .

وأومأ «بريتام» بحركة من رأسه توحى بأنه قد سمع، وإن لم يحول عينيه عن الطريق ..

وأحنق ذلك السيد «تريانا» الذى لم يكن يحب الهندوكيين،

لاسيما الصموتين منهم.. كان ميالاً إلى الثرثرة، وكان قصير القامة، ضخم الجسم ذا عضلات قوية ثقيلة، نحاسى البشرة، وكان شديد الزهو بإعلان جنسيته الانجليزية، لايكف عن التلويح بجواز سفر بريطانى ليؤيد دعواه.. وربما كان هناك خطأ ما، فإن جواز السفر البريطانى- الذى كان السيد «تريانا» يحمله - لم يحل دون أن تكون بشرة الرجل داكنة كبشرة «بريتام» أو أن تكون عيناه صغيرتين سوداوين براقتين، أو أن يكون ذا شعر طويل أسود، يلمع بفضل ما كان يعلوه من مادة «البريانتين».. كان حريصاً دائماً على العودة إلى طرق هذا الموضوع ما أمكنه ذلك، شأن مَن يريدون أن يؤكدوا انتماءهم إلى أصل مشكوك فيه!! وما أشد ما كان ينتابه من حنين حين يتحدث عن «وطنه» - بريطانيا- !! وتفوق هذا الوطن على غيره من الأوطان - كانت الشعوب الملونة جميعاً - شعوب ذوى البشرة الصفراء والنحاسية والأبنوسية - لا تعدو فى رأيه أن تكون سلالات زنجية اعتاد أن يختصها بمختلف أنوا ع الازدراء، وكان دائم السخرية بكل ما يراه، وينتقده بلسان حاد.. وكم امتلأت بالغبطة الخبيثة نفسه لكل ما كان يمر به من قرى يسودها الخراب والجدب، حتى أنه كان يفرك يديه إعلاناً عن سعادته!.. ولعله كان

يتصور، وهو يحشر نفسه فى زمرة الأوربيين، أن باستطاعته أن يغير من لون بشرته وشكل عينيه!!

كان السيد «بريتام» – الضابط السابق بسلاح المدفعية يتساءل ساخراً عما عسى أن يكون مسقط رأس هذا السيد «تريانا». لعله ولد تحت سماء فى مثل زرقة هذه السماء، وفى مناخ أشد حرارة من هذا المناخ.. بيد أن «بريتام» كان حريصاً على أن يقف موقفاً سليماً، وكان مايتمتع به من دماثة خلق يحمله على ألا يدع أية فرصة لإظهار ما كان يجد من تسلية وفكاهة فى مظاهر تعاظم السيد «تريانا» وادعائه!

وانحرفت السيارة الضخمة عن الطريق لتصل إلى تل كان يبدو – من بعيد – كأنه كومة من الأحجار. وهنالك، اكتشفوا حصناً مهجوراً، يستطيع المرء أن يجد بداخله ملاذا من وطأة الشمس، وأن يعثر فيه على مكان رطب تستريح فيه النفس من شر هذا الهجير !

وخرج الجميع من السيارة يتمطون فى اغتباط لأول مناسبة سنحت لهم للحركة.. وتثاءبت الفتاة، ورفعت ذراعيها.. فوق رأسها، كقطة صغيرة كسول، وأخذ السيد «تريانا» – الذى لم يكن يحول عنها عينيه – يمرر طرف لسانه فوق شفتيه

الغليظتين، ويدنو منها ليمسك بذراعها العارية بين أصابعه الضخمة.. ثم قال لها فى تلطف: «أسرعى إلى الظل يا هيلين!».

وقرص ذراعها، وهو مستمر فى مزاحه : «كيف نصبح، إذا أصابتك بضربة شمس .. هه؟».

وابتعدت عنه الفتاة فى فتور، ودخلت إلى الحصن وراء السيدة الأخرى، الواضح أنها لم تكن تحب السيد «تريانا» ولكن كونها مرافقة السيدة - «جوردان» شقيقته - كان يحتم عليها أن تحتمل الكثير مما لايروقها منه.. ولكن الوقت كان قد فات للندم على ذلك .

وتوقفت خلفهم عربة نقل صغيرة، كانت تتبعهم على مسافة كافية، ونزل منها خادمان وأخرجا منها سلالا، وبسطا بعض المفارش، وأعدا المائدة فى حرص ومهارة ينمان عن خدم مهذبين مدربين .

ومالبثت السيدة «جوردان» التى ظلت أثناء هذه الاستعدادات صامتة، وإن راحت تتأمل الغداء بعين نهمة - أن انقضت على كومة الشطائر بيد متلهفة، وراحت تلتهم منها بنشوة وشره.. بينما كانت «هيلين» ترقبها بشعور من الشفقة والاشمئزاز، وانتحى «بريتام» جانباً، وقد بدا على سجيته، فى قميصه الأزرق

ذى الياقة المفتوحة.. وتجلى على وجهه ذلك التعبير الذى ظل يلازمه، والذى كان ينم عن البرود واللامبالاة، وكأنه كان يرجو بذلك أن يقيم حاجزاً بينه وبين الباقين .

لم يكن السيد «تريانا» يكف عن إثارته طوال فترة الرحلة، وقد ظل يضايقه بالملاحظات المحرجة عن عادات الشعب الهندوكى ومعتقداته، ولكن «بريتام» ظل - من ناحيته - ثابت الجنان لا يتأثر، وكان موقفه هذا مما أثار حيرة «هيلين»، فقد كان عدم اكتراثه يحنقها تارة، ويحملها على الإعجاب به - تارة أخرى - لما كان ينم عنه من سيطرة على النفس.. سيطرة تفوق كل تصور! وقد دفع هدوء «بريتام» السيد «تريانا» إلى ذروة السخط، فصاح فى النهاية يعلن بازدراء :

- بلد رائع !.. يمكن أن يقال إنكم قد بلغتم درجة من النضج تؤهلكم للتمتع بالاستقلال.. أو بتعبير آخر، يمكن أن يقال إنها تبيح لكم الحق فى أن تموتوا جوعاً فى سلام.. دون أن يؤذن لأحد بالتدخل فى شئونكم !

ولكن «بريتام» ظل على صمته.. وهنا انتابت السيد «تريانا» نوبة حنق بارد، وكأنما عقد العزم على أن يفعل أى شئ من شأنه أن يحدث استجابة لإثارته.. كان يريد أن يرى الغضب

يزيح ذلك القناع - الذى لم يكن يملك أن ينفذ خلاله إلى مافى نفس الرجل - ويصبغ هذه البشرة السمراء بحمرته، ويشعل الشرر فى هاتين العينين اللتين كان هدوء نظراتهما أسوأ أثراً من الإهانة، لذلك طوح بذراعه فى اتجاه القرية القاحلة، وفى اتجاه الأرض التى كانت تتشقق جدباً تحت الشمس قائلاً :

- فيضانات، مجاعات، فساد، رشوة، زيادة فى السكان، نتيجة رائعة!.. هه؟ إن أحداً لم يستطع - منذ غادرنا هذه البلاد - أن يفرض أى قدر من النظام.. ليس لديكم من معنى كلمة الحكومة سوى الثرثرة الفارغة ينساق إليها بعض الساسة الذين أسكرتهم نشوة السلطان! .. كيف تجرؤون على الاشتراك فى جلسات مجلس الأمن؟.. كيف تتأتى لكم القحة لتقدموا للعالم النصائح والتوجيهات.. أنتم يا من تتخبطون فى أبشع ألوان الفوضى؟.. يالها من وقاحة لا تطاق، أن يندفع أناس فى إبداء النصح والدعوة للنظام، وهم لايعرفون كيف يوجهون دفة أمورهم!

وفى لمحة خاطفة كأنها وميض البرق، لاح أن «بريتام» يوشك أن ينقض على السيد «تريانا» فيقبض بأصابعه الطويلة على عنقه،، ويضغط بكل قواه.. ولكن يديه المتوترتين ارتدتا بسرعة،

وقال بلهجته الإنجليزية التى لاتشوبها شائبة :

– أظن أن وقت الرحيل قد حان، إذا أردنا أن نصل إلى «الشاليه» قبل حلول الليل!

وكانت السيدة «جوردان» تنقل بصرها بين الرجلين، والقلق يرسم على وجهها تعبيراً يزيد من معالم البلاهة التى تعلو أساريرها.. ومالبثت أن قالت بلهجة تنم عن التوفيق والمصالحة:

– سيد «بريتام» أليس عندك من معلومات مثيرة تود اطلاعنا عليها، بشأن هذا الحصن؟

وتطلع إليها «بريتام» ثم ابتسم قائلاً :

– إنه ليس سوى حصن قديم بلا تاريخ.. على أنه من المعلومات الطريفة أن لدى القرى المجاورة عادة جديرة بالذكر، تتمثل فى أن يقدم السكان إلى إله المطر قرابين بشرية.. وبما أن القانون – فى أيامنا هذه– يحرم بالطبع مثل هذه العادات، فإن كثيرا من الفلاحين – من سكان المنطقة – يعتقدون اعتقاداً راسخاً، أنهم ما كانوا ليواجهوا هذه المجاعة لو أنهم قدموا إلى إله المطر قربانا!

فأطلقت السيدة «جوردان» صيحة خفيفة، تنم عن الانفعال والرعب، وهتفت:

– أتعنى أنهم كانوا يتقربون إلى آلهتهم بمخلوقات بشرية حقاً !

وأردفت هيلين قائلة : «يا إلهى! .. هذا غير معقول!؟»

فهز «بريتام» كتفيه، وهو يجلس إلى عجلة القيادة، وقال:

– عجباً!.. هذه ليست سوى وسيلة من الوسائل لمواجهة الأمور. إنهم يضحون بكائن بشرى فى سبيل إنقاذ حياة المئات من الآدميين.. وفى الوقت ذاته، نحن هنا نرى أن من البشاعة إرسال الناس إلى بلد أجنبى بهدف قتل أناس آخرين لايكنون لهم شيئاً من العداء! .. وعلى أية حال، فإن هذه العادة قد انقرضت منذ عهد بعيد .

وصرخ السيد «تريانا» بلهجة غاضبة :

– هل تتطاول فتقارن تلك الشعائر الوحشية، التى تؤديها قبيلة بدائية جاهلة، بالحملات التى تنظم تنظيماً دقيقاً فى الحروب الحديثة ؟

وقال «بريتام» فى نفسه، وقد بلغ به الضيق مبلغه :

«هاهو ذا يعيد الكرة!» ثم بذل جهداً جباراً للسيطرة على نفسه .

كانت السيارة تسير ببطء فى طريقها المرسوم، فصرف ذهنه

إلى تأمل روعة الآلات الحديثة.. فقد لاتواتيه الفرصة - بعد اليوم - ليقود سيارة لها مثل هذه الروعة والمرونة. وراح - وهو مقطب الجبين - يركز كل اهتمامه على الطريق.. ترى بالله، ماذا سيتاح لهذا الكائن المترهل أن ينشر فى صحيفته؟

كانت الحقول العارية- التى ألهبتها الشمس وأجدبتها - تتتابع فى خط واحد، على مدى البصر.. وعلى مسافات متباعدة، كانت الأبصار تلتقى عند هيكل شجرة وحيدة، تمتد أغصانها إلى السماء، أو بمجموعات صغيرة من الأكواخ المتناثرة، عبر تلك المساحات المترامية الموحشة.. ولكنها لم تكن تقع على كائن بشرى، وكأنما لم يقدر لمخلوق من الأحياء أن يخاطر ويتوغل فى هذه الصحراء .

وأخيراً بلغوا «الشاليه»، وعند عتبة الشرفة ظهر كهل بادى النعاس، وراح يتأمل السيارة الفارهة وركابها فى بلاهة.. كان المسكن نموذجاً لمأوى كلاسيكى: أثاث عتيق تغطيه الأتربة ويخيم عليه نسيج العنكبوت، وحشيات يسمع صرير زنبركاتها المحطمة، وأسرع القوم ينشرون الملاءات النظيفة قبل الشروع فى اتخاذ الترتيبات الخاصة بوجبة المساء .

وأقبل على المكان بعض الأهالى الشاحبين، النحاف، فى

أسمال بالية وقد اجتذبتهم أنوار المصابيح والضوضاء والحركات غير العادية، فراحوا يحومون حول «الشاليه».

وكانت هيلين أول من رآهم، فأطلقت صيحة قصيرة، تنبه بها رفاقها. ولمحوا بعض الأطفال.. كائنات صغيرة تثير الشفقة، إذ ضمرت أعضاؤهم، وانتفخت بطونهم، وراحوا يتأملون الغرباء بنظرات ثابتة، لا تشير بشئ..

نظرات كانت تنبعث من عيون واسعة، ذوى بهاؤها !

وغمغمت «هيلين» وقد غص حلقها: «أواه!... يا للصغار المساكين!. لكن السيد «تريانا» أخذ يفرك كفيه، وقد بدت عليه علامات الاغتباط .. وقال :

– أنا على يقين من أنني سأحصل على ما أبتغيه من صور مثيرة!

(والتفت إلى بريتام «قائلا»: «اخبرهم بأنني أريد أن يحضروا غداً، لألتقط لهم بعض الصور، وقل لهم أن يحضروا معهم أنحف نساء المنطقة وأشدهن ضموراً .. نسوة يعطين الإحساس بالموت جوعاً!.. إنك تفهم ما أعني.. قل لهم سأمنحهم «بقشيشا طيباً» !

ونطق «بريتام» ببعض الألفاظ السريعة مخاطباً أكبر الرجال

سناً، فاتجهت نظرات الشيخ إلى السيد «تريانا» وظل يتأمله محدقا فيه لحظات طويلة حتى اضطرب السيد «تريانا» وأحس بالارتباك، فأخذ يردد: «ماذا أصابه! ألم تفهم؟ أم ماذا؟»

ودمدم المواطن مخاطباً «بريتام» بشئ ما، فقام هذا بترجمة حديثه .

– صباح غد، عند شروق الشمس، عليك أن تذهب إلى أكواخهم وسيعرض عليك هؤلاء القوم كل ماتحب أن تراه.. هل تحب أن توجه أسئلة أخرى ؟

فقال «تريانا» بلهجة مفعمة بالاغتباط: «قل لهم إننى أحب أن أشهد عملية تقديم قربان بشرى ما!.. وراح يطلق قهقهة صاخبة.. فرمقه «بريتام» فى صمت أخرس ضحكته فى حلقه، بينما تسلل الأهالى فى طيات الظلام .

وعندما أعد العشاء، اتخذ أفراد الجماعة الصغيرة أماكنهم إلى المائدة، كانت وجبة رائعة، تشهد بما لصناعة الأغذية المحفوظة من أفضال.. وتناولوا بعدها أكوابا من القهوة المسكرة، الممزوجة باللبن .

وكانت «هيلين» – خلال الغداء – تأكل بطرف شفتيها، وحين رفعت عينيها، لاحظت أن «بريتام» لم يمس أى طبق من الطعام،

بل انصرف إلى احتساء قهوته فى رشفات صغيرة، غافلاً عما حوله، وقد شردت نظراته بعيداً من فوق رؤوس الموجودين.. وكانت السيدة «جوردان» تشعر بالقلق، فأخذت تقضم الطعام دون إقبال عليه، وهى تتلفت نحو النوافذ – من آن إلى آخر – بنظرات قلقة، تسائل الظلام الذى كان يلف «الشاليه»، كأنها تخشى ظهور عينين لامعتين فى وجه هزيل !

أما السيد «تريانا» فأخذ يأكل بارتياح تام، متذوقاً كل الأصناف، مجففاً شفتيه بمنشفة ناصعة البياض، ملتهماً كميات ضخمة من الطعام .

وعندما بدت طلائع الفجر الجديد، كان السيد «تريانا» على أهبة الاستعداد.. وكان الجو ينذر بيوم قائظ الحرارة، والسماء شديدة الزرقة، وعلى البعد، كان الناظر يميناً يلمح مجموعة من الأشجار قرب بئر جافة، وكانت الأبصار ترتد دائماً إلى هذا المكان، تجذبها إليه قوة خفية لا سبيل إلى مقاومتها .

وقام السيد «تريانا» بإعداد آلة التصوير، وعلقها إلى عنقه بسير من الجلد، ثم قال: – حسناً! .. قم معى يا «بريتام»!

وأجاب «بريتام» فى برود : «كلا .. لن أذهب!».

ولو أن أحداً رأى السيد «تريانا» – إذ ذاك – لخيل إليه أنه

لن يلبث أن يصـاب بسكتـة قلبيـة. وكـرر الشـاب بنفس لهـجـة اللامبـالاة، قـوله: «لن أذهـب.! إننى أتقـاضـى أجـرى لأريك البلد فحسب!.. وهذا هو كل عملى».

مكث السيد «تريانا» مسمراً فى مكانه، وقد أخرسه الذهول، وغاب عن وجهه كل إشراق.. وكان الجهد – الذى راح يبذله كى يكتم غضبه – يزيد من انتفاخ شرايين أوداجه، ثم وضع قبعته فوق رأسه دون أن يضيف كلمة واحدة، وسط الضوء الباهر الذى كان يغمر السهول .

وانقضت عليه حرارة الجود دفعة واحدة، فى قسوة لا ترحم، ولكنه لم يعرها أى اهتمام.. كان الحنق والسخط يهدران فى داخله!.. وكانت الأرض الوعرة تحيل سيره تعثراً، والمحصولات القليلة توشك – تحت لفح الشمس – أن تذبل فى حقولها، وكان مجرى النهر قد جف من أمد بعيد وتراكمت فيه الرمال، وأخذ السيد «تريانا» يتعثر فى مشيته – من وقت لآخر فيتناثر السباب خافتاً مكتوماً من بين أسنانه، وشعر بأن ثيابه – على رقتها – ثقيلة لا يطيق تحملها مع حرارة الجو، فقد أخذ العرق يتفجر من جسمه غزيراً ويملأ سترته بقعاً مبتلة، وعلى مقربة من القرية، أخرج من جيبه منديلاً مضمخاً بالعطر، فجفف به وجهه .

كان ثمة رجال ونساء راقدون أمام الأكواخ، أو على عتبات الأبواب، وكأنهم غابوا فى سبات مخيف.. ولم يكن من اليسير – لأول وهلة – أن يميز الإنسان بين الشبان منهم والشيوخ من فرط مافعل العذاب والجوع بوجوههم .. ولم يأت أحدهم بأدنى حركة، عند اقتراب السيد «تريانا»، وإن بدت عيونهم جاحظة، محمومة، وقد اتجهت نحوه، تحملق فيه!

واتخذ السيد «تريانا» ألطف مظهر له، إذ كان بإزاء موقف فريد تماماً، وكانت سحنهم تبعث على الذهول، يالها من مجموعة صور مثيرة سيحدث نشرها فى صحيفته دوياً هائلاً!

وفى رقة مصطنعة، مال السيد «تريانا» على سيدة شابة منبطحة فوق التراب، شبه عارية، وهى تحتضن طفلاً وليداً، وازداد السيد «تريانا» انحناء عليها، وأخذ ستفحص الطفل بعناية.. كان ميتاً! .. وكان لا يزال فاغراً شفتيه، وكأنه كان يصر – حتى بعد الموت – على طلب الزاد!

ووضع السيد «تريانا» يده الغليظة فوق كتف الأم الهزيلة البادية العظام، كل ما كان يبغيه هو أن تخرج الأم من منطقة الظل، كى يلتقط لها صورة فوتوغرافية، ولكن حركته فجرت فى ذلك الجو الساخن ما يشبه الصدمة الكهربائية، فتراجع إلى

الوراء خطوة وتطلع إلى مايدور حوله! ..

كان الرجال والنساء جميعاً قد نهضوا فى حركة واحدة مرنة، وفى صمت، كأنهم أشباح فى كابوس مزعج.. كانت المساكن قائمة على ثلاثة أضلاع من منطقة مربعة.. أما الضلع الرابع، فكان المخرج الوحيد من القرية.. وعند هذا المخرج تجمع القوم كشخصيات فى إحدى «الرقصات» الأسطورية، فقطعوا بذلك خط الرجعة على السيد «تريانا».. وأخذوا يتقدمون نحوه فى صمت رهيب! .. ورأى السيد «تريانا» عشرات النظرات المتقدة المسلطة عليه .. نظرات تنم عن تصميم لايرد.. ومضوا يقتربون، ويقتربون، ويزدادون اقتراباً !

وسرت فى أوصاله رعشة رعب.. وراح يتراجع – وقد استسلم للخوف – بدافع غريزى – حتى أحس بجدار ساخن خلفه، فاستند إليه، محال أن يمضى إلى أبعد من ذلك! ومن كل الجهات حوله، ظلت ترمقه عيون قريبة، يصليه بريقها ويحطمه.. عيون داكنة فى وجوه داكنة، غامضة، قاسية ملتهبة .

هاهو ذا يشتم رائحتهم!.. كان كمن يترقب نهايته، دون أن يأتى بمجرد حركة يدافع بها عن نفسه، وبيد مرتعدة، فتح سترته، وأخرج من جيبه حافظة منتفخة بأوراق النقد.. وتلعثم

قائلاً ، وهو ينزع حفنة من الأوراق المالية التى بسطها :

- خذوا ! .. هذه لكم !!

وسـقطت الأوراق من يده وديست بالأقـدام، وأجـهـز هذا الاحتقار - الذى قوبل به المال - على أعصابه وحطمها نهائياً، فانهار.. وصرخ: «النجدة»!

ولكن صوته ارتد إليه مرتعشاً، بالغ الضعف !

- النجدة ! النجدة!

العيون .. الوجوه .. كل شئ ضده!.. وبغتة برزت أطراف الخناجر تومض شرراً تحت أشعة الشمس، صرخة مكروب، حادة ومتصلة!.. وفى السماء ذات الشمس الحارقة، شرعت العقبان تحوم.. بلا عجلة، بل فى هوادة .

وفى «الشاليه» انقضى النهار ببطء، ولم يظهر السيد «تريانا» وقت الغداء، ولكن أحداً لم يسرف فى القلق عليه، وإن كانت دقات الطبول الأولى قد أثارت فى نفوسهم شعوراً غامضاً بعدم الارتياح.. إذ كانت دقات الطبول تتصاعد - وسط وهج القيظ - بطيئة فى البداية، كأنها وجيب قلب هامد ..

ثم أخذت تزداد سرعة وشدة، حتى أصبحت تدوى بوحشية ضارية.. وسرعان ما امتلأ الجو كله بهذه الدقات الظافرة،

يصاحبها ترنيم رتيب، رهيب!

وتناهت كل هذه الضوضاء إلى الجالسين فى «الشاليه» فأخذ تتابعها السريع يلقى فى قلوبهم رعباً لا سبيل إلى وصفه!

وحينما قرروا - أخيراً - أن يخرجوا للبحث عن السيد «تريانا»، وجدوا الطبول تحاصرهم من كل اتجاه.. شعروا بها أمامهم، وخلفهم.. وكانت تدور، وتدوى، فى نشوة عاصفة بدائية هوجاء!

ولم ير أحد السيد «تريانا» بل اصطدمت أبصارهم بوجوه خاليه من كل تعبير.. وجوه جامدة، لا سبيل إلى النفاذ إلى ما وراءها.. وكأنما أصيب أهل القرية بالعمى، فلم يكونوا يبصرون.. وبالصمم، فلم يعودوا يسمعون !

ولم يلح الأغراب فى سؤال القوم.. وكانت بهم حاجة إلى السؤال. إذ إن المخاوف التى خامرتهم، سرعان ماتجسدت أمام أبصارهم.. جسدها منظر الطيور السوداء تحوم فى السماء، ثم تحط على مكان قريب.. وسعوا إلى ذلك المكان، فانزعجت الطيور الجارحة، وطارت.. وتبين الأغراب أنها كانت تحط على جثة السيد «تريانا».. والحق أنهم لم يتعرفوا على الجثة إلا بالحدس.. أو ما يشبه الحدس!

ودثروه فى مـلاءة بيـضـاء، ورفـعـوه إلى السـيـارة النقل الصغيرة.. وكانت السيدة «جوردان» تئن بصوت واهن مبحوح.. وراحت «هيلين» تتطلع، وقد نضبت دماء وجهها - إلى «بريتام» وكأنها تهم بأن توجه إليه سؤالا ما.

ولم يكن «بريتام» قد فقد شيئاً من هدوئه، مما مكنه من أن يعجل باتخاذ التدابير للرحيل ..

وعندما هموا بمغادرة المكان، بدأت الأمطار تهطل.. نقاطاً ضخمة ثقيلة، وأخذت تزداد غزارة، حتى تحولت إلى سيل تدفق فوق سقف السيارة، بينما كان قصف الرعود يتتابع فى هدير!

وتطلع الثلاثة الذين كانوا فى السيارة، كل إلى الآخر، فى صمت ..

ومن خلال خرير المياه المتدفقة، وهزيم الرعود، ظلوا يسمعون دقات الطبول المنتصرة، الظافرة، وكأنها تنبعث من أحشاء الأرض ذاتها.. الأرض الجائعة، التى أخذت قوتها تعود إليها من جديد، فى تلك اللحظات.

الصـــندوق

ليون ديبرترى

(بلچيكا)

كانت السفينة البخارية التابعة لشركة الملاحة البلجيكية تبتعد عن المرفأ رويداً رويداً وهى تبهر الأبصار بوضاءتها تحت أشعة الشمس الآفلة، وكانت السفينة قد رست صباح اليوم نفسه أما ميناء «سانت – كروا دى تينيريف»، بينما كان الركاب المهتمون بانتهاز كل لحظة يقضونها فى هذا المرسى البديع، يتدافعون على سطح السفينة، وهم على أهبة النزول .

لقد استيقظوا قبل الفجر، حتى يتمتعوا بمشاهدة منظر من أجمل المناظر فى العالم ألا وهو بزوغ النهار فوق أنف جبل «تيد»، الرائع الذى يشرف بضخامته على درة جزر كانارى.

كانت المحادثات حامية، تموج بعبارات تدعو بالخير، وكان «ريمون بولان» هو الشخص الوحيد الذى كان لايشارك فى تلك الحمى الجماعية.. لأنه، على النقيض من الآخرين، كان يتمنى أن يرى حلول نهاية ذلك اليوم بأسرع ما يمكن .

ومع كل، فقد كان سلوكه بعد ذلك مشابهاً تماماً لسلوك رفاقه فى الرحلة، لقد كان مفتوناً بألوان الجمال التى لاحصر

لها فوق تلك الأرض التى كانت تبدو وهى خارجة من المحيط وكأنها خلاصة كنوز الأعماق الخفية بأسرها، لذلك فقد قام بجولة فى الطرقات التى تؤدي إلى داخل الجزيرة، ولم يعد إلى ظهر السفينة إلا بعد صفارة تنبيه، عاد آسفاً، متعباً ولكنه مبهوراً .

إنه لم يستسلم لاغراء المحلات التى تبيع الهدايا التذكارية ولا لإلحاح التجار الذين يقومون حتى فوق سطح السفينة، بعرض السجاجيد ذات الألوان الزاهية والحلى الفضية المنقوشة، يعرضون هذا كله مخلوطاً بالأقمشة المخرمة الثمينة التى تشتهر بها هذه الجزر. والآن ها هو ذا يكاد يكون بمفرده، متكئاً على مترسة يسار السفينة.. كان يعرف كيف ستنقضى الساعات المقبلة: سيلبث حالماً لحظة طويلة، يستعيد خلالها الأحداث الرئيسية فى حياته وبخاصة تلك الأحداث التى عايشها طوال الشهور الأخيرة، وبعد ذلك حينما يملأ الركاب حجرة الطعام ثم يخلونها، ويعكفون فى الحجرات وقد أجهدهم التجوال، حينئذ سينتهز فرصة خلو سطح السفينة من الناس ليعرض جسده للرياح التى تهب عليه من عرض البحر، ويتمتع بالسكينة التى تنزلها فى نفسه المساحات المترامية فى السماء والماء اللتين

يسبح وسطهما .

عندئذ تكون قد حانت اللحظة التى يقوم فيها بتحقيق الرغبة الأخيرة لصديقه، العقيد «دى لائنيك».

ولد «ريمون بولان» من أبوين بلجيكيين، وجند فى فرنسا عام ١٩٤٠، وحجز فى أحد معسكرات الأسرى، لذلك فقد كان يعرف أين يكون واجبه، لقد سجن فى أسبانيا، وعندما لاذ بالفرار التحق فى انجلترا بقوات التحرير، كمظلى مستعد للقيام بأية مهمة بشرط أن تكون خطيرة، ثم مندوب اتصال بالمقاومة، وغدر به وسجن، وعندما لاذ بالفرار مرة أخرى على أثر حركة تمرد كانت جرأته نفسها جديرة بأنها تحبطها، لجأ أخيراً إلى الأحراش، ولقد خرج من مغامراته فى «الفيركور» بإيمان شديد فى قوة القدر، وعدم اكتراث بالخطر، حتى أن أشجع الشجعان لايتذكر ذلك دون أن ترتعد أوصاله .

ثم كان التحرير والاهتمام بالتكيف من جديد مع الحياة الاجتماعية، بعد كل تلك السنوات من الكفاح المتواصل وبعد حياة ظلت فى أغلب الأحيان خارج القانون، كان عليه أن يتخذ لنفسه مكاناً فى عالم جديد، وكان عليه أن «يشق لنفسه طريقاً فى غمرة الزحام»، فى وطن كانت البطولة فيه عملة بلغ رواجها

حداً، فقدت معه قيمتها، وكان المال، وحتى المال الحرام، يجد فيه على وجه السرعة سطوته وسلطانه .

لقد انقضت أجمل سنى عمره وسط نيران العمل والكفاح فى سبيل مستقبل وطنه دون أن يفكر فى مستقبله الشخصى.. أما الآن فإنه يسير مندهشاً فى مدن كان عليه أن يحترم ممراتها المفروشة بالأشواك، كان يعيش فى مسكن ضيق، وكثيراً مافوجئ، وهو يرتدى ثيابه بطريقة آلية، بنفسه وهو يبحث بطريقة آلية أيضاً عن قطعة سلاح لم تعد معه وظلت فترة طويلة تمثل جزءاً من أشيائه العادية ...

أين الغابات العميقة، والممرات الوعرة، والثياب الكتانية الخشنة؟ أين السترة الصوفية السميكة التى كانت تحميه من ليالى البرد التى كان يقضيها فى العراء إلى جوار مدفعه الرشاش الوفى؟ أين الكمائن، أين المخاطر، أين المخاطرات؟ لم يبق من كل ذلك سوى خطر واحد هو أنه أصبح على وشك أن يحيا بلا أى مورد .

لقد كان من الطبيعى جداً أن يفكر فى أفريقيا، ليس فى مدنها المكيفة الهواء، المتفرنجة، والتى تحكمها القوانين...، وإنما كان يفكر فى أدغالها، فى أركانها الموحشة، فى سكانها الذين

لايزالون على الفطرة، فى أسرارها وخفاياها... واتخذ قراره...

ولكن يجب عليه أولاً أن يرى «جينفيف دى لائنيك» مرة أخرى.

لم يكن يتوقع سماع المأساة التى كشفت له عن جوانبها فى نفس المساء الذى دخل فيه الحجرة التى يشغلها آل «لائنيك» فى «باسى» وهو بالغ السعادة للرد السريع الذى تلقاه على خطابه.

لقد وصلته أخبار قليلة عن العقيد وعن ابنته منذ تحرير باريس على أيدى فرق الجنرال «لوكلير» التى دخل بها المدينة .

وقبل ذلك العهد، كان يقابل السيد «دى لائنيك»، الذى كان يعمل فى المقاومة تحت اسم مستعار، وكان يهتم بصفة خاصة بإعادة طيارى الحلفاء إلى أوطانهم، حينما يسقطون أو يهبطون اختيارياً خلال انجازهم لبعض المهام فى مناطق يحتلها العدو .

لقد أعجب ، منذ أول وهلة، بالحيوية والذكاء اللذين كان يتمتع بهما ذلك الكهل الأصيل الذى يتصف بسمات العسكرية من أم رأسه حتى قدميه، وعقدت بين الرجلين صداقة متينة تشبه الود.. وهاهو الآن يجده مرة ثانية مسترخياً فى كرسى موسد، شارد النظرة يكاد أن يكون خالياً من الحياة .

ومع ذلك، فلقد بدأ الانتعاش قليلاً على العقيد عندما مست

يده يد «ريمون» وأضاء وجه «جينفييف»، لحظة قصيرة بابتسامة شاحبة، لقد تغيرت هى الآخرى كثيراً .

كان «بولان» يحاول يائساً أن يعثر من جديد فى ذلك الوجه المستسلم، عن نظرة الاعتداد والاطمئنان، والفم الملئ بقوة الإرادة، وملامح النشاط والبشرة الملفوحة، هذه الصفات التى كثيراً ما تكشفت له، عندما كانت تلك الفتاة التى كان أفراد المقاومة يسمونها «سيدتنا الصامدة» تخرج فى مهمة خطرة أو تعود منها، وتبادلوا بعض العبارات العادية، وفى أثناء العشاء بذل «ريمون» مجهودات فاشلة ليثير ذكرى الماضى والمغامرات المشتركة، فكان يحصل على اجابات مقتضبة، غير أن المحادثة التى كان هو الممول الوحيد لها، كانت تفتر، ولاحظ مندهشاً أن مضيفيه لايبذلان أى مجهود لاحيائها .

وبمنتهى السرعة، استأذنت جينفييف فى الانصراف، ومكث الرجلان وجهاً لوجه.

وطرأ تغيير مفاجئ على موقف العقيد «لائنيك».. وماهى إلا لحظات حتى عاد من جديد ذلك المحدث الممتاز كما كان فى الماضى. وراح «ريمون بولان» ينصت إليه حتى النهاية، دون أن يحاول مقاطعته .

– إننى أقدم لك يا صديقى العزيز بالغ أسفى على الطريقة التى قوبلت بها فى منزلنا هذا المساء .

ومع ذلك ليست هناك زيارة أعز عندنا من زيارتك. حقاً، إن العناية الإلهية هى التى أرسلتك إلينا .

أريد أن أخبرك ببعض الأمور التى لا تحتمل الانتظار، وإذا كنت قد لزمت الصمت حتى الآن، فذلك لأننى لم أكن أستطيع أن أتحدث إليك أمام ابنتى، لقد كلفتها قبل عدة أيام قليلة بأن تبحث عن عنوانك وترجوك أن تأتى لزيارتنا، ولن تلبث أن تعرف السبب. كما ستدرك أيضاً سبب فرحتى بخبر سفرك القريب إلى أفريقيا، إن هذا الخبر هو عزائى الوحيد لما أشعر به من حزن فى الوقت الحالى .

بعد خمسة عشر يوماً، يا «ريمون»، ستدخل جينفييف دير «كارميل»... لقد شاهدتها قبل قليل، إنها تعيش منذ الآن فى عالم آخر، إن حالتها هذه ترجع إلى علاقتها بشخص قدمته لى قائلة أنه ليس ضابطاً، أو على الأقل لم يصبح بعد كذلك، ولكنه بطل كالأبطال الذين تحبهم يا بابا .

كما شرحت لى أن هذا الشاب كان ضمن جيوش فرنسا الحرة طوال حملة افريقيا، وهو أحد المنتصرين فى موقعة

«بيرحكيم» وشارك فى تحرير فرنسا، وقد أصيب على أبواب مدينتنا، وهو يتحرق إلى مواصلة الكفاح حتى النهاية.. ثم أضافت قائلة: «ولكننى قبل ذلك سأحضره إليك، وسيطلب منك يدى.. إننى على ثقة، يا بابا من أنك لن ترفض»

وحضر «بيير» فعلاً فى اليوم التالى، فسبب حضوره انهياراً مفاجئاً لى، لقد شعرت أن هذا الشخص الذى تحبه ابنتى سيكون موضع معارضة الجميع، وإذا اقتضى الأمر سيكون موضع معارضتى أنا أيضاً. ذلك لأنه كان مخلط الدماء،.. صحيح أنه كان ممتازاً، يتدفق قوة وشباباً، دمث الأخلاق، لطيف الهيئة يثير الإعجاب، ولكنه بعد هذا كله مخلط الدماء.

لقد أمضيت، كما تعلم، شطراً من حياتى الوظيفية فى مستعمراتنا الافريقية، كان يكفى لتفسير ماكنت أشعر به أن أستعيد الذكرى. ومع كل، فقد قمت بطريقة لطيفة بدعوة المساعد «موجيندى» (كان هذا لقبه وتلك رتبته) لقضاء السهرة معنا والنوم فى منزلنا لأنه كان سيسافر فى اليوم التالى إلى الجبهة، وفى حديث قصير منفرد مع ابنتى، وعدتها بالتفكير فى الأمر...

كانت حجرة «بيير» تواجه حجرتى، عندما عرفت أن «جينفييف» نامت، طرقت باب المساعد «بيير» .

كنت تقريباً أعلم كل شئ عن حياته، التى لم تكن معقدة على أى حال. فمنذ طفولته افترق عن أمه وبدأ الدراسة التى واصلها فيما بعد بنجاح كبير. وكان أبوه المجهول يقوم بسداد جميع حاجاته، وكانت الأموال اللازمة فى تربيته ترسل بانتظام وباسم مجهول إلى أحد بنوك «برازفيل»، كانت الحرب قد وقعت فى الوقت الذى كان يقوم فيه هذا الشاب بإعداد نفسه للحياة العسكرية، كانت بالنسبة له حرباً مجيدة، وكان يجد متعته فى أنها لم تلق أوزارها حتى يتسنى له أن يواصل الصعود فى سلم الارتقاء المنشود .

وفى سلسلة تتدلى من رقبته، تحت ملابس النوم، لمحت تعويذة غريبة: شطراً من قطعة عملة فضية فئة الخمسة فرنكات، كالتى كانت متداولة قبل الحرب الأولى، لقد كانت القطعة منشورة بطريقة غير منتظمة، ولقد أوضح لى أنها أعطيت لأمه ساعة ولادته، وأن والده قد احتفظ بالشطر الآخر، الذى يأمل بفضله أن يعثر على ابنه يوما ما ..

وعندئذ تحادثنا طويلاً، ولا أقوى على أن أنقل لك كل ما تبادلناه من حديث ستستطيع أنت أن تستنتجه بسهولة عندما تعرف البقية ...

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، وصلنى خبر موت «بيير» البطولى، مصحوباً بصندوق صغير من الأبنوس عثر عليه بين حاجياته، ووضعت بداخله أوسمته ونياشينه الجديدة التى منحها تكريماً له بعد موته، مع ساعة معصمه، وبعض الأشياء الدقيقة، وبخاصة السلسلة والتعويذة. وجاء فى الخطاب المرفق أن هذه الأشياء أرسلت إلى عنوانى طبقاً للمعلومات التى عثر عليها فوق جثة الفقيد.

وعلمت بعد ذلك بحقيقة نوبة الجنون التى بذل هذا الشاب النبيل روحه فى غمرتها، وحينئذ لم أستطع أن أشك لحظة واحدة فى أن الكلام الذى كنت قد وجهته إليه، والذى انتزع من قلبه كل أمل إلى الأبد، كان سببا فى موته .

أنا الذى قتلته، يا «ريمون»، وفى الوقت نفسه ضحيت بابنتى، التى لم تكن تعيش إلا من أجل هذا الحب، الذى كانت تحمله فى ذاتها كشعلة لم يخمدها إلا الموت.. ولقد حكمت على نفسى بنفسى ..

إنك ترى إلام صارت حالى. عندما تكون أبواب الدير قد أغلقت دون ابنتى سينتهى الأمر أيضاً بالنسبة لى.. ومع ذلك فإننى أتقبل كل شئ، فأنا الذى قرر هذا المصير ذات يوم، وأنا

أدفع الثمن... لن تغير شيئا مما ينبغى أن يكون، ولكننى أتوسل إليك أن تنصت إلى جيداً، وأناشد صداقتك أن تؤدى لى خدمة، ستكون هى الخدمة الوحيدة والأخيرة التى أكون قد طلبتها طوال حياتى .

هاك مظروفاً كبيراً يضم مخلفات «بيير» لقد نسيت أن أخبرك بأننا، بعد كثير من البحث والتقصى، قد عثرنا حديثا على عنوان أمه التى لا تزال على قيد الحياة فى مكان ما بقرية صغيرة من قرى أفريقيا الغربية الفرنسية. أتعشم أن ما تركه هذا الابن يسلم إلى أمه، إن ابنتى «جينفييف» على علم بالموضوع، وبالرغم مما تمثله هذه الأشياء بالنسبة لها فإنها تقبل أن تضحى بها وتتنازل عنها، إننى لا أستطيع أن أعهد بها إلى شخص خير منك. ستسافر إلى هناك، وسأموت أنا مطمئن النفس، واثقاً أنك ستؤدى هذا الواجب، كما لو كنت أنا نفسى الذى قدر له أن يؤديه لو أتيحت لى الفرصة .

وذات يوم سأعطيك أيضاً الصندوق الأبنوس الذى أؤثر أن أحتفظ به بعضاً من الوقت، فى ذلك اليوم، ستعرف أنه لم يعد لى وجود، إن حياتى لا تتعلق إلا بخيط واحد، وقد تصلك هذه الرسالة مع الصندوق قبل رحيلك أيضاً .

وفى هذه الحالة، عندما تغادر آخر ميناء، عندما لايصبح فى مقدورك أن تعود إلى الوراء، وتصبح أفريقياً السوداء هى المرفأ القادم للسفينة التى تحملك، حينئذ افتح الخزانة وضع بداخلها كل فحوى المظروف، واعمل كل ماسيكون فى امكانك لكى يصل المظروف إلى صاحبته دون أن تمسه يد.»

كان «بولان» قد رحل مبكراً جداً فى اليوم التالى. وبعد شهر، حمل إليه البريد طرداً سرعان ما تكهن بفحواه، وعلم فى الوقت نفسه أن العقيد «دى لائنيك» قد انتحر «تحت تأثير إحدى النوبات العصبية». ونشرت الصحف أنها جاءت نتيجة للحزن الذى ألم به عندما دخلت ابنته دير «كارميل دى ليزيو». «عندما تغادر آخر ميناء».

ها هى ذى أصغر جزر «كانارى» لم تعد جزيرة نائية، وها هو السكون قد حل على ظهر السفينة وفى ممراتها الجانبية التى خلت من الركاب وراحت السفينة وسط الليل، تنطلق متمايلة فوق البحر الهادئ بأقصى سرعتها، وهاهى أفريقيا السوداء هنالك بعيداً فى نهاية هذه الجولة الأخيرة .

وعاد «ريمون بولان» إلى قمرته وكان لحسن الحظ بمفرده، وفتح المظروف، وفى تأثر واضح طرح كل مابه فوق فراش

القمرة: صليب التحرير، صليب الحرب، وميدالية حربية، ثم أضاف بيد حانية نوط الشرف الذى خصص للرقيب بعد عام من وفاته، كانت هنالك أيضاً بعض الأشياء الشخصية، وبعض الأوراق النقدبية قد تكون هدية من العقيد، وأخيراً سلسلة الرقبة مع قطعة العملة الفضية التى ربما أتاحت «لبيير» لو أنه عاش، أن يعثر ذات يوم على أب مستعد لاحتضان مثل هذا الابن العظيم.

لم يقتنع «بولان» بالتقاليد البالية التى دفعت صديقه إلى أن يرفض تزويج ابنته لأحد الأبطال، لذلك الضابط المغوار الذى خدم فرنسا وضحى بحياته فى سبيلها، تماماً كما يفعل غيره من ذوى الأصل العريق، بل وربما خيراً منهم.. تلك التقاليد الباليه التى نشرت الحزن وأشاعت الموت..

لم يكن متحمساً فى رفضه، إلا أنه كان على وشك أن يقسو فى حكمه على العقيد، بينما كان يجتهد فى فتح الخزانة الأبنوسية الصغيرة التى كان قفلها يستعصى على الفتح.. ولكنه ما كاد يرفع الغطاء حتى أدرك إلى أى حد كان الحب الذى تكنه «جينفييف» لـ «بيير» أمراً مستحيلاً. وأدرك السبب الذى من أجله كان يجب بأية حال أن تعرف الحقيقة الفظيعة. ولم يكن

بحاجة إلى أن يقرب شطرى القطعة الفضية التى نشرت بطريقة غير منتظمة والتى رآها فى قاع الصندوق، لم يكن فى حاجة لعمل ذلك لكى يتأكد أنهما سينطبقان تماماً، وبكل وضوح، كما لو كان قد شهد حديث الرجلين، يستطيع الآن أن يستعيد كل ما قيل بينهما فى الليلة التى سبقت موت العقيد «بيير دى لائنيك» .

بلبل واحد لايصنع ربيعا

مون لوباندا

(الكونغو)

لن يتفق اثنان بتاتاً على قيمة الزنجى وقدره، أما فى مجال العمل فالأمر بسيط: إن الأبيض الذى يستخدم الزنجى فى إنجاز مهمة ما، يضج منه ويشهد العالم على قلة خبرة موظفه الزنجى وعدم كفاءته، أما المتعاطف فإنه يجد الزنجى ظاهرة نادرة، ولايجد فى العالم رجلاً كالزنجى، فهو يتكيف مع جميع الأوضاع.. يعمل اليوم بناءً، وسائق سيارة غداً، وطباخاً فى اليوم الذى يليه، بنفس الثقة الخالصة فى إمكانياته .

إن مايثير اهتمامى فى الزنجى هو سلوكه نحو قرنائه، ونحو الطبيعة أيضاً .

إن الزنوج بلا عقل، بلا تمييز، هذا ما يزعمه المتعصبون، إنهم غير خليقين بأدنى شعور، وهم يتصرفون كالبهائم، ويكفى فقط أن تراهم وهم يعالجون أنفسهم، إن عدم إحساسهم بالألم لدليل على قسوتهم وغلظة أكبادهم، إنها لمشكلة مثيرة أن نحاول الكشف عن الأفكار الخاصة بكائنات لاتفكر مثلنا، ولا تتمتع بغزارة أفكارنا وإمكانيات التعبير عنها.

كنت أقوم برحلة فى مستنقعات بحيرة «بانجيولو» وكنا فى شهر إبريل، حيث لم يكد ينتهى فصل الأمطار، ولقد كان فصلاً رديئاً، لأن الأمطار هطلت فيه بغزارة فاقت كل وصف، كانت معظم الأراضى غارقة بالمياه وزادت المستنقعات عشرة أضعاف.

لم تتغير البلاد منذ عهد «ليفنجستون» أى منذ خمسة وعشرين عاماً، صحيح أنه تمت مشروعات قامت بها قلة من المستنيرين الذين جاءوا لغزو هذا الركن الأفريقى، وقد حاولوا أن ينقلوا حماستهم الشديدة إلى الزنوج الذين لايميلون إلى بذل المجهود، ولكن هذه الفترات المتباعدة من الاستعمار لم تخلف أثراً، واستعادت الادغال بطريقة لا تقاوم ما كان خاصاً بها. فكنا نجد الانهار كما تركها «ليفنجستون».

وكما كانت الحال على عهده، كانت البلاد بسبب الأمطار مغطاة بطبقة من المياه التى كنا نخوض فيها، ومن آن لآخر كانت تظهر قطعة من اليابس تمثل جزيرة صغيرة، وفيما حولنا مياه ومياه وأعشاب حتى آخر الدنيا ،وفوق هذه الأعشاب كنا نرى الديدان الكثيرة التى وصفها «ليفنجستون»، والتى تتلوى وتنبسط حينما تسقط فى المياه، وها هى الرياح تهب من بعيد لكى تبدأ أنينها الذى يتضخم ويكبر ليستحيل إلى زمجرة

متواصلة، تزداد ضخامة حتى تتحول إلى زئير هائل.

ولكى أكسب الوقت، لأننا دائماً فى حاجة إلى وقت، على عكس الزنوج الذين لديهم فائض منه، كنت اتنزه فى قارب وطنى، لايكاد يتسع لجلوسى، وكان القارب يعلو المياه بقليل، عند كل ضربة من المجداف كان يرتفع ويندفع بسرعة وهو يكاد يحمل المياه بداخله، وكنت وأنا متمدد فى قاعه، لا أرى سوى الماء والعشب يمتدان فى رتابة تبعث على القنوط، ووسط هذا المنظر الموحد الممل، كنت أقضى وقتى فى القراءة أو فى الاستماع إلى ما كان يقصه الوطنيان اللذان كانا يشكلان طاقم مركبى.

كان أمامى «نويلوا» وخلفى «بواليا» وكلاهما من منطقة «الباتوا» كانا شابين بدائين قويين، وفى منطقة «الباتوا» لا يفلحون الأرض كما يحدث فى المناطق الأخرى، ولماذا يفلحونها ما دام يكفى للحصول على الدقيق أن يغوص المرء تحت المياه، وأن ينزع سيقان نبات اللوتس يجففها ويسحقها؟ ولماذا يفلحون الأرض، مادامت عملية الغطس هذه نفسها ليست ضرورية، فهم يشبعون جوعهم بمضغ سيقان البردى التى تنبت فى كل مكان؟ نعم، لماذا يجهدون أنفسهم فى تقليب هذه الأرض القاحلة

ماداموا فى بحيرة «كيال» يصطادون السمك بسهولة إذا لزم الأمر .

وحملات الصيد فيم تجدى؟ إن لم يكن فى مقايضة الدقيق باللحوم التى يدوسونها بالأقدام ويجففونها فى الشمس، إن أهالى «كاباتا» يعزقون الأرض ويفلحونها وهم يتلهفون على اللحوم والأسماك التى لا تتوفر لديهم أو التى لايستطيعون الحصول عليها، إن الجوع فى غالب الأحوال يعذب سكان «كيبويا» ولكن مافائدة الشكوى؟ ففى تتابع الأيام توجد الأيام الحسنة والأيام الرديئة، توجد الأيام التى تأكل فيها، والأيام التى يجعلك الجوع فيها تتقيأ. كل فرد يعرف ذلك، ولكن لايغير منه شيئاً، ومنذ ذلك الوقت ولا فائدة من الشكوى، ولهذا فإن أهالى «كيبولا» قوم قساة القلوب ولايشكون أبداً .

كنا قد توقفنا، منذ أيام مضت عند قرية «ميوانومبيا» فى جزيرة «ماتانجو» وكان الأهالى لا يزالون يعملون فى تلالهم المزروعة وكنا قد رأيناهم وهم يحاولون الانتهاء من عملهم بسرعة، وكانت هناك إمرأة عجوز تسرع هى الأخرى، كانت تسرع وهى تزحف فوق الأرض، لأن ساقيها المشلولتين كانتا عاجزتين عن حملها، كانت تزحف وهى تدمدم ببعض الألفاظ

لكى تؤنس وحدتها، وكان أطفال القرية قد تجمعوا وأقاموا سياجا على طريق العجوز. وكانوا يشعرون بمتعة كبرى وهم يشاهدونها تزحف، لأن مثل هذه المشاهد لم تكن شائعة فى «ماتانجو» وكان المازحون لاينفكون يقولون إن العجوز ستصل فى الوقت المناسب بالضبط لكى تبذر كوستها، فتنطلق الضحكات لأن كل فرد يعلم أن الكوسة قد أكلت منذ فترة طويلة فى شهر إبريل، هذا الخاطر الذى كان يثير ضحك الشبان كان يثير غضب العجوز، فكانت تحاول أن تنهض، وكانت تلوح بمغرفتها بذراعيها الخاليتين من القوة، وكانت تسب الذين كانوا يسيئون إليها، كانت تصرخ فيهم، لأن حلقها لم يكن مصاباً: «اغربوا عن وجهى يا أولاد الحرام، يامن تسخرون من عجوز عاجزة، لسوف تهرمون يوماً وستصبحون بدوركم عاجزين»: ولكن تلك اللعنات كانت تأتى بغير النتيجة التى كانت ترجوها من ورائها، لم يكن الشياطين الصغار يجدون فى هذه اللعنات سوى نوع من الهذيان، وكان ذلك الهذيان يثير موجة جديدة من الضحك، فلم يكونوا قد سمعوا من قبل أن اللعنات التى توجه ضد الآخرين قد شفت إنساناً من عاهته، إن العجوز، مع أنها كانت تجد القوة لكى تسب الأطفال، فإنها لم تجد فى سبابها

القوة لكى تشد من عزم ساقيها، واستأنفت العجوز تقدمها البطيء نحو حقولها وهى لاتزال تهمهم .

حيوان قارض جازف بالخروج على الطريق هو الذى انقذها من سخريات الشبان الذين تحولوا إلى الشجار للحصول على الحيوان الصغير .

وعندما عدت إلى القارب، سألت المجدفين اللذين كانا بصحبتى عن قصة هذه العجوز، هل انجبت أطفالاً؟ وكيف أصبح هؤلاء الأطفال؟ ولماذا لايقدم لها الناس يد المساعدة؟ نعم، لقد انجبت أطفالاً كبروا وتزوجوا، ولقد غادروا البلاد، وربما وافاهم أجلهم لأن أحداً لم يعد يتلقى شيئاً من أخبارهم، ولقد سئم أهالى القبيلة من مساعدة العجوز، لأنها كانت تهاجم كل شئ، فالمرء يسأم من مساعدة شخص لايكف عن التبرم والسخط، إن «نويلوا» له رأى فى هذا الشأن فهو يقول: «إن هؤلاء العجائز القعيدات مخلوقات هرمة مصحوبة دائماً بضجيج يبعث على السخرية ومن العسير مراسهن».

ورحت أتمعن فى ذلك وأخذتنى سنة من النوم، ثم استيقظت عندما كنا ندخل بلدة «نامبا»، وكان «مويلوا» يروى قصة لزميله «بواليا» وها أنا أحكيها لكم كما سجلتها .

«فى ذلك العام، كنت قد قررت أن أقوم بصيد بعض كلاب الماء، لأن جلودها كانت رائجة، وكنت أقوم بالصيد منذ عدة أسابيع فى ارجاء بحيرة «كيال» وكنا فى فصل الأمطار، وكانت كلاب الماء تتبع الأسماك التى كانت تفيض بها البحيرات والانهار وتنتشر فوق الأراضى المغمورة بالمياه، وكنت قد عزمت على البقاء فى القرية بعد التوفيق فى الصيد، ومن قبل، كنت أريد أن أبيع جلودى لتاجر من «نشيتا» كان يدفع فيها ثمناً أفضل من سواه، والطريق طويل من «كيال» إلى «نشيتا»، ومن ذلك، فقد عزمت على أن تكون رحلتى ذهابا وإياباً، وأن أعود إلى القرية فى نفس اليوم، لكى استريح من الصيد، ومن الأمطار، ومن الوحدة.

وفى الذهاب، سار كل شىء على ما يرام، وبعت جلودى بثمن طيب، وتوقفت بعض الوقت فى قرية «بواليا مبوندا»، وكانت الشمس قد شرعت فى مسيرتها صوب الجنوب، عندما فكرت فى أمر العودة، وكانت ثمة بعض السحب قد ظهرت ناحية الشرق، ولكن كان باستطاعتى أن أعود إلى البيت، إذا جدفت بقوة، إن القارب يكون خفيفاً بالنسبة لمن يريد أن يعود إلى القرية ويعرف طريقه جيداً، فكنت أجدف بقوة كما كنا نفعل

عندما كنا نقوم بسباق القوارب لتسلية البيض، ومع ذلك فقد كانت السحب تتقدم أسرع منى وتلحقنى .

وكنت قد اجتزت دغل «كيبولا» منذ فترة لابأس بها عندما فاجأنى الليل، وكان لا يزال أمامى طريق طويل، وكنت أحدث نفسى قائلاً: «ليت المطر لايسقط»، وشرعت الرياح فى الهبوب، وكانت تساعدنى فى مهمتى، لأن القارب كان خفيفاً وكان يقفز فوق المياه عند كل ضربة من المجداف، فكنت أتقدم سريعاً كالطائر الذى يشق أجواء السماء، لكن السحب كانت أسرع منى، فكلما كنت أجدف لابتعد عنها كانت تلحق بى. وغاب عن ناظرى آخرى النجوم، وأصبح الظلام حالكاً، فلم أعد أرى شيئاً يذكر، ولحسن الحظ، كانت تجتاز السماء ومضات من النور تتيح لى أن أتأكد أننى أسير فى الطريق السوى عندما كانت تبرق من خلفى، وعلى حين بغتة، شرعت الأمطار فى الهطول، حبات كبيرة ساخنة فى بادئ الأمر، ثم سيلاً مدراراً، وكانت ومضات النور تغشى عينى، والأمطار تغمرنى بالمياه، وحاولت رغم كل ذلك أن أجدف، غير أن البرد تمكن من يدى ولم أعد أشعر بالمجداف الذى كنت أمسك به .

كنت أحاول أن أقنع نفسى أن «كيال» لم تعد بعيدة جداً،

وكذلك القرية، ولكن هذا لم يكن سوى كذب على نفسى، لأنه فى الصباح، كانت «كيال» بعيدة جداً عن «كيبولا» وكانت الأمطار لاتزال تبللنى دون توقف وتسلبنى كل شجاعة، فتوقفت لكى ألتقط أنفاسى واحمى نفسى، ولم يكن يوجد حولى سوى العشب المبلل وأوراق من نبات عرائس النيل كانت تطفو فوق كل تلك المياه، ولقد حاولت أن أصنع لنفسى مأوى ألوذ به، ولكن يدى اللتين شلهما البرد كانتا عاجزتين ولم توفقا فى ذلك، وكنت ارتعد كعود الغاب من فرط الخوف والبرد، وما اندرهم أولئك الذين لا يتملكهم الخوف فى الظلام وتحت الأمطار.

وأصبحت كومة العشب التى كان من المفروض أن تحمينى، بلا فائدة واستأنفت طريقى وانتهى بى الأمر إلى أنى ضللت وسط الظلام، وإذا كانت الدموع تعزى الرجال لكنت قد بكيت، ولكن الدموع لاتعزى سوى الأطفال .

وأخيراً خلدت الأمطار إلى الهدوء، أما جسمى، فلم يستطع أن يهدأ، وكان يرتعد جملة بلا باعث، كان البرد يخدر اعضائى أكثر فأكثر وأحسست أننى أبلغ نهاية رحلتى، وإذا بزئير أسد بالقرب منى يجعلنى انتفض، ومن الخوف صرخت قائلاً :

– أى «كيباندا»، اغرب عن وجهى أيها الشيطان اللعين، منذ

طلبك؟ من ذا أثارك؟ ليس لى شأن بك. فلا ترعب الناس الذين يعودون إلى بيوتهم، إننى لم أصبك بسو فاغرب عن وجهى، فلا شئ يمكن أن يلقى الرعب فى «كينانجولا»، شرير تحول إلى أسد، أن تلك الأسود، لا شىء يرهبها، بل على العكس، فإن السباب التى نوجهها إليها لايكون من شأنها إلا أن تجعلهم أكثر شراسة، إن هذه الأسود التى يستحيل مراسها هى آكلة للبشر، وهى لا تعرف الرحمة، ولحسن الطالع، كان الحظ معى، فإن ذلك الأسد الذى كنت أسبه لأنه كان يزأر بأعلى عقيرته بالقرب منى، كان أسداً عادياً .

ولقد كانت حادثة الأسد مثيرة، لأننى عثرت على طريقى، ووصلت إلى «كيال» ثم إلى القرية، وأنا ميت من فرط الجوع والبرد والإرهاق، وكانت القرية هادئة. حتى الكلاب لم تكن تتحرك عند اقترابى من شدة البرد .

ووصلت كوخنا وأنا أتعثر من التعب وكان الباب مفتوحاً على سعته، وكانت أمى جالسة بجوار النار، ولكن الضوضاء التى أحدثتها جعلتها تشرئب بعنقها لكى ترى القادم، كانت فى انتظارى مع أن الوقت كان متأخراً للغاية، وبادرتنى قائلة :

– صحبتك السلامة، يا ولدى، ها أنت ذا وصلت.

– ايه، نعم، وصلت، يا أماه !

– لاشك أنك تشعر بالبرد، فقد ظل المطر يهطل طول الليل تعال إذن بجوار النار لكى تستدفئ، لقد خرجت لإحضار كمية من الحطب لإشعالها لأننى كنت أعرف أنك ستعود. أنت تشعر بالجوع لأن النهار كان طويلاً وقد قطعته فى السفر. هاقد احتفظت لك بالطعام، فكل حتى تسترد عافيتك. سطر جديد كان هناك بالفعل سلة ضخمة مليئة بالحطب بالقرب من النار، كذلك كان الطست الملئ بالماء والمعد لاغتسالى فوق الأرض. وأردفت أمى قائلة :

– لقد سمعت زئير الأسد، كان المطر قد بدأ يتوقف عن الهطول، وقد شعرت بالخوف عليك، لأن الزئير كان آتياً من جهة «كيبولا». كنت أخشى أن يكون ذلك الأسد من أكلة البشر فهم بلا رحمة، لكننى لا أدرى كيف أن الطمأنينة غشيتنى وتأكدت أنك ستعود. كنت على حق، لأنك هاقد عدت .

وفيما كنت أتناول طعامى، كانت أمى لاتحول نظرها عنى، وكان سرورها بعودتى يتجلى فى كل حركة من حركاتها. كانت لا تفتأ تقول: «كل يابنى، واسترح».

حقاً، إن الأم لاتكاد ترى أضلع وليدها تظهر حتى تقدم له

الطعام لكى يأكل.

وعلق رفيقى «بواليا» على ذلك قائلاً :

– إن كل ما ترويه صحيح، إن الأم وحدها هى التى تستطيع أن تمس رأس ولدها فتعرف مابه من ألم .

مرة أخرى، تأكد لى مدى الحب الهائل الذى تكنه الأم لابنها كذلك فقد تأكد لى مدى الاحترام الذى يكنه الابن لأمه عند الزنوج .

إن بلبلاً واحداً لايصنع ربيعاً، ومع ذلك فهو يسهم فى صنعه.

الحب .. كلام فارغ

سـوتا

(أيسلندا)

فى فناء مزرعة «جرينووتر»، كان جواد القس فى انتظار سيده الذى كان ماثلاً عند رأس سرير المزارع الكهل، وكان القس قد انتابته هزة عند رؤيته لوالد «كاترين» الذى كان المرض قد غيره تماماً . وها هى نظرته التى كانت قاسية غامضة فى الماضى، معلقة بالفضاء، مستقيمة أمامه، إن شفتيه الزرقاوين، ولونه الرمادى، وشعره الذى كان يسقط فى غير نظام فوق جبينه المبتل، كل ذلك كان يشكل تناقضاً صارخاً مع الصورة التى كان القس يحتفظ بها لعدوه الكهل .

لم يتنازل المريض بالرد على تحية القس، وكان يتابع ابنته «كاترين» بعينه وهو يتساءل إذا كانت قد بكت مرة أخرى .

وقدمت «كاترين» كرسياً إلى القس وهى تهمهم بصوت رقيق:

– إن والدى اليوم ضعيف للغاية .

ثم استدارت وخرجت مسرعة، تحت نظرة الرجلين .

كانت «كاترين» هذه فتاة لطيفة، وكان القس يعرفها خير المعرفة، ولو كان قدر للمزارع العجوز الصعلوك أن يموت منذ

عشر سنوات مضت لكانت «كاترين» الآن زوجة القس، ولكن الأب الشيخ، فى ذلك العصر، لم يحاول أن يفهم مطلقاً، كان قد أعلن أن ابنته لن تتزوج سوى مزارع، ولم تستطع توسلاتهما، ولا دموع «كاترين» أن تثنى الأب عن قراره، وكان يجيب على كل توسلاتهما بهزة من كتفه، وهو يقول :

– الحب ... كلام فارغ!

وجلس القس عند رأس سرير المريض، كانت هذه أول مرة يجتاز فيها عتبة المزرعة منذ عشر سنوات، إن وجوده مرة أخرى فى هذا المكان، بالقرب من رجل عرف عنه الشدة والبأس، قد ولد عنده شعوراً بالشماتة والانتصار .

وحدث القس نفسه قائلاً وهو يشعر بالشماتة : «وأخيراً»

وبرق شعاع ضئيل فى عينى العجوز المظلمتين:

– ومع كل فقد حضرت، هه ؟

كان صوته خشناً قوياً .

فأجاب القس بنبرة رقيقة :

– طبعاً، لماذا أمنع مساعدتى عن رجل يموت؟

– ما هذه القصة ؟ من قال لك إننى سأموت؟ إننى أعلم تماماً أن موتى سيسر الجميع سروراً بالغاً، إننى من الآن أرى

عمالى وهم يعبرون عن بالغ فرحتهم.. إن قلبى يحدثنى أنهم الآن يتسكعون ويضيعون الوقت سدى بدل أن ينصرفوا إلى أعمالهم. «فعندما يغيب القط...» وابنتى عندئذ، سترقص طرباً عندما أموت. يا للجاهلة المسكينة التى لا تستطيع حتى أن تحافظ على نفسها. كلا، لا تتصوروا أننى سأعجل بالموت لكى ألقى السرور فى قلوبكم .

فأعلن القس بلهجة من يلقى حكمة :

– الحياة والموت بيد الله .

فزمجر الشيخ قائلاً :

– خزعبلات، إنك تعلق أهمية كبرى على القدر والغيبيات. سأكون أنا المخطئ، إذا مت، لأننى سأكون مثل الأبله، مثل غبى هالك بينما عمالى يضيعون الوقت، آه يا للكسالى!

وألقى القس بنظرة قلقة على الرجل وهو يتساءل إذا كان لايهذى. وانفجر الشيخ صائحاً :

– إلى الشيطان !

وقطب الحاجبان الكثيفان، وجمدت تجاعيد الفم .

وارتعد القس لهذا الصوت القوى، وتأكد أن السنين والمرض لم تخفف من حدة طباع الشيخ، فلا يزال الطبع العنيف،

المتحكم، ولايزال النزوع إلى الثورة والتجديف .

ولبث الرجلان صامتين، وكان المزارع ينظر أمامه فى غموض واكتئاب، وبدأ القس يشعر بالضيق. وتجرأ وقال :

– لقد أرسلت فى طلبى ؟

فرمقه الآخر بعين سوداء قائلاً :

– ليس ذلك لأننى أريد أن أعقد الصلح معك، صدقنى، إننى لازلت أعتبر أنك لاتصلح زوجاً لابنتى «كاترين»، إن «كاترين» فتاة مجتهدة فى عملها، مقتصدة فى نفقاتها، إن لها عقلاً تفكر به، وعضلات، وهى تعرف كيف تدير المنزل، إنها كنز حقيقى .

فأجاب القس :

– إننى أعرف هذا كله .

– لقد جريت وراءها فى الماضى، لأنك كنت تعلم أنها سترثنى.

وبذل القس مجهوداً ليملك نفسه، وقال بصوت يرتعش من الغضب:

– كلا، أنت مخطئ .

– كنت تعلم أنها سترث مزرعة «جرينووتر» وكل ما أملك .

فزعق القس قائلاً :

– هذه وشاية !

ثم نهض محتداً، فقال الشيخ:

– هيه، أنت كغيرك من الناس، أيها القس الصغير العزيز، إننى آخر من يلومك على ذلك.

وزرر القس عباءته، وأعلن غاضباً :

– لا داعى لوجودى هنا.

وهم القس بالانصراف، ولكنه استعاد ضبط نفسه، فلم يكن من اللائق أن يتشاجر مع رجل يموت .

– ليس بهذه السرعة، ياقسنا العزيز، إننى لم أنته بعد من حديثى، قليلاً من الصبر.

ورفع الشيخ يداً هزيلة مشيراً له بالجلوس من جديد .

فأطاع القس، أن الشيخ كان العقبة الوحيدة أمام سعادته، ومع أنه، لهذا السبب، كان يمقته من كل قلبه، فإنه كان لا يريد أن يجازف ويتعجل بإثارة هجوم، فقال وهو ينتقى كلماته :

– أظن أنك تريد أن تتلقى سر القربان ؟

– لا . سأرحل كما أنا. إن كل ماصنعته فى حياتى كان فى طريق الخير.

– هل أنت واثق تماماً أنك أحسنت التصرف عندما فرقت بين

«كاترين» وبينى؟

– نعم، لقد قلتها لك، «الحب كلام فارغ» على الأقل، كان هذا رأيى فى الماضى.

فسأله القس وهو يطير فرحاً :

– وهل غيرت رأيك !

ولم يجب ومرت عدة لحظات قبل أن يقرر الكلام، ثم قال فى بطء :

– كنت لم أكد أكمل العشرين من عمرى، عندما جئت لأول مرة إلى «جرينووتر» ولقد راقنى المكان فى الحال، كانت لدى صاحب المزرعة فكرة طيبة عنى، وكانت «مارجريت» ابنته الوحيدة، وكان الناس يقولون إنها جميلة، ولم أكن أعيرها كثير اهتمام، حتى ذلك اليوم الذى أدركت فيه أن الفتاة والمزرعة يشكلان حصة لاتقبل القسمة، وأننى لن أحصل على المزرعة أبداً إن لم آخذ الفتاة أيضاً .

فقررت أن أطلب يدها، وتحدثت فى بادئ الأمر إلى والدها ووجدته موافقاً .

فهز القس كتفيه باشمئزاز، وقال:

– «ومارجريت»، هل كانت المزرعة بالنسبة لها أثمن من

سعادتها هى أيضاً ؟

– هذا ما كان يجب أن تفكر فيه فعلاً، ولكننى أعتقد أنها لم تكن تعبأ بالمزرعة، وفى الواقع، أنا لا أدرى من ذلك شيئا؟.

– الحب.. ليس على لسانك إلا هذه الكلمة، وهل أنا أعرف حتى معنى الحب؟ لم يكن لدى الوقت لشعور من هذا النوع، إننى أذكر، ذات مساء، بعد العمل، أنى كنت جالساً عند سفح التل أخطط مشروعات للمستقبل، كان مساء جميلاً، وكانت الشمس تنشر أشعة ذهبية فى كل مكان.

وكنت أتطلع إلى المزرعة وإلى الأراضى. كم كان كل ذلك جميلاً! .. كنت أرتب فى رأسى أكداساً من المشروعات من أجل تجميل المزرعة عندما يحين الوقت .

وعلى حين فجأة، إذا بذراع تحيط برقبتى، من الخلف، وأسمع صوتاً مرتعداً يهمهم قائلاً :

– هل تحبنى؟ هل تحبنى الآن ؟

ظننت أنها «لينا»، تلك الفتاة التى كانت تغمز لى بعينيها طوال فصل الصيف، ولقد غضبت لأنها أزعجتنى على هذا النحو، فدفعتها عنى، وحتى دون أن ألقى عليها نظرة من فوق كتفى، قلت لها ببرود :

– دعينى إذن فى هدوء. إن الحب... كلام فارغ !

إننى أتذكر سير الخطى فوق العشب.. لقد أقبلت بلا ضوضاء وعادت فى سكون كسحلية صغيرة وسرعان مانسيت المقاطعة وعدت إلى التفكير فى الماشية، والحقول، ومبانى المزرعة التى كانت فى حاجة إلى الإصلاح، كان لابد من بذل مجهود ضخم واستثمار مبلغ لا بأس به من الأموال، تصور كان من الضرورى إقامة مزرعة جديدة، وتجفيف المستنقعات، وتمهيد الأرض حول المسكن.

وعندما رجعت، كان الجميع نائمين، وفكرت فى «لينا». كنت فى النهاية قد تخلصت منها، تلك البلهاء، هل تجرؤ على ذلك؟ تأتى فتحيط رقبتى بذراعيها لتحاول إغرائى! فى تلك الليلة، رأيت فى المنام أنى أصبحت سيد «جرينووتر». كنت قوياً، محترماً ...

وفى صباح اليوم التالى، بينما كنت أعمل فى الحقول، رأيت صاحب المزرعة يقبل نحوى وقال لى بلهجة غاضبة :

– لا فائدة مع الصغيرة، الحال لاتسر .

ورفعت المنجل، فسمعته وهو يقول ساخطاً :

– فلتصيبنى اللعنة إذا كنت أفهم أمور النساء. إنها لم تلبث

فى بادئ الأمر أن وافقت دون حاجة إلى توسل أو رجاء، ولكنها الآن لا تريد أن تسمع شيئاً فى موضوع زواجك منها .

فتوقف تنفسى، وأظن أننى شحبت، وليس ذلك من الندم على فقدان «مارجريت» ولكن تلك الأراضى والضياع، وتلك المزرعة، ها هو كل ذلك يضيع منى، كل أحلامى استحالت إلى تراب.. ولم أستطع إلا أن أغمغم قائلاً :

– وما السبب ؟

– إنها تؤكد أنك لا تحبها. لا تهتم يا صديقى.

وتناول العجوز ذراعى وأضاف قائلاً :

– ربما تستطيع أن تقنعها وتعيدها لصوابها. إننى أنصحك بالذهاب إليها الآن فوراً .

كان قد انتابنى شك رهيب. وأخذت الطريق إلى المنزل بخطى سريعة، والعجوز يلهث فى اثرى ودخلت الدهليز مباشرة فصادفت «مارجريت» وهى تخرج من الحجرة المشتركة، فتظاهرت بأنها لم ترنى، وتأهبت للانصراف دون أن تقول لى كلمة، ولكنى أمسكت بذراعها وجذبتها إلى داخل حجرتها وأغلقت الباب. وبلهجة جامدة، سألتنى عن بغيتى فقلت :

– يجب أن أتحدث إليك .

فأجابت :

– إنني لا أرى شيئا يمكن أن تقوله لى .

فملت عليها وسألتها :

– هل أنت التى جاءتنى، مساء أمس، ووضعت ذراعيها حول عنقى؟

فقالت غاضبة :

– كيف لم تعرفنى ؟!

– صفح الله عنى، لقد ظننت أنك «لينا» الصغيرة، تلك الشيطانة الوقحة.

فسألت فى لهفة :

– صحيح ؟ صحيح ؟

فأجبت فى وقار :

– أقسم لك .

فسألتنى وفى عينيها شك :

– ماذا بينك وبين «لينا» ؟

فطمأنتها فى الحال :

– أبداً! لقد كانت هذه المجنونة تلاحقنى طوال الصيف، دون أن تلقى منى أدنى تشجيع، ولقد رأيت أنها تستحق درساً جيداً.

فقالت «مارجريت» وهى تبتسم فى ظرف :

– أجل، كانت تستحق هذا الدرس .

ووضعت رأسها فوق صدرى وتنهدت قائلة :

– إننى سعيدة للغاية، سعيدة للغاية ...

ثم رفعت عينيها نحوى وسألتنى بصوت ضعيف وجل :

– أتحبنى إذن ؟

هذا سؤال أخرق . كانت تمعن النظر إلى، كما لو كانت تريد أن تستتشف أخفى أفكارى.. ورأيت أنه ليس أمامى وسيلة للخروج من هذا المأزق .

فقلت متلعثماً والعرق يتصبب فى ظهرى :

– إننى لم أعرف نساء غيرك .. إننى أكن لك حباً كبيراً .

وتبع ذلك صمت طويل. أما أنا ، فكنت أرتجف من الخشية، لأن الغنيمة كانت تستحق ذلك، وفى تلك الأثناء كانت اللحظات تمضى دون أن تتخذ «مارجريت» قرارها . وأخيراً أعلنت قائلة :

– مما لاشك فيه أنك تحبنى. ثم أضافت بلهجة قاطعة، وهى تتعلق بى بذراعيها :

– وإذا لم تكن تحبنى الآن، فإن هذا سيحدث يوماً ما .

وجذبتها بين يدى وأنا مجنون من الفرحة، ورفعتها عن

الأرض، ثم وضعتها فى حذر وطبعت قبلة على فمها .

وصـمت الشـيخ، وغـرق القس فى أفكاره، ولم يكن يدرك السـبب الذى راح الشـيخ من أجله ينبش كل هذه الذكـريات المعفرة، ومع كل فإنه لم يبعث فى طلبه فقط لكى يروى له قصة زواجه، وكان يشعر بنوع من الاعجاب لهذا العجوز الجرئ، القاسى عديم الشعور، ولكنه شريف مع نفسه، لايستطيع مهما كانت النتائج أن يتظاهر بشعور لايحس به، وأن ينطق بالكلمة التى يمكن أن تفتح له الطريق لكل مايشتهيه فى العالم.

– وأخيراً أصبحت سيد «جرينووتر» ومضت الأعوام. وكان زواجنا موفقـا، وتبين أن «مـارجريت» زوجة ممتـازة، وشريكة مخلصة، ولم تقم بيننا أية سـحابة... حـتى ذلك اليـوم الذى اعتقدت فيه «كاترين» إنها تحبك، كانت زوجتى قد وافقت عليك من أول وهلة وطلبت منى أن أوافق. وذات يوم، شرعت تحدثنى فى هذا الموضوع وتتوسل إلى أن أمنحك موافقتى، فأجبتها وقد أغاظنى إلحاحها الشديد .

– الحب ... كلام فارغ !

كانت بالضبط نفس الكلمات التى نطقت بها قبل عشرين عاماً وأنا أظن أننى كنت أتحدث إلى «لينا». فرمقتنى زوجتى

بنظرة تقطر ألماً وقالت :

– أكان هذا رأيك عندما جئت تطلبنى من أبى ؟

فتوقف تنفسى من الذهول . وهكذا لم تكن نسيت شيئاً لأنها لم تكن قد نسيت الماضى .

ثم استطردت تقول :

– ربما لم أكن أنا التى كانت تهمك فى ذلك الوقت، ربما كانت المزرعة هى التى كانت تعجبك أكثر .

فانصرفت دون أن أجيبها، ولم تكن الأيام التالية أياماً بهيجة، وكانت زوجتى تعبس فى وجهى ولا تنفك تضغط على أسنانها، وكانت «كاترين» تبكى، وكان ذلك كله يمثل قمة السخرية، فلم يكن لدى «كاترين» أى سبب للشكوى، فبفضلى، كانت «جرينووتر» قد أصبحت أجمل ضيعة فى سائر الإقطاعية. كنت قد قمت بتجفيف المستنقعات، وتمهيد الأرض المجاورة للمبانى، وكنت أقتنى فى الحظيرة خمسمائة خروف وعشرين بقرة، وعشرة جياد داخل الاسطبل، وخمسين دجاجة فى خن الدجاج، وخمسة عشر خنزيراً فى حظيرة الخنازير، ولم يكن هناك دين، ولا رهن. كانت «كاترين» هى التى سترث ذلك كله عندما تحين ساعتى.؟ قصارى القول، لقد كنت أعمل من أجلها،

من أجل مستقبلها، وهاهم يتهمونني بأنني سبب شقائها وإفساد حياتها، هيا إذن! إن فتاة لها مثل هذا الميراث لايمكن أن تكون تعسة، هذا ما كنت أقوله لنفسي عندما كنت أتأمل مزارعي الواسعة، والمراعي التي كان العشب فيها يجف تحت الرياح .

كان القس ينصت حائراً، لهذا العجوز الأناني الذي دمر حياة ابنته، ولايبدي الندم على ذلك حتى وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت .

– ولم تعدم «كاترين» من الخطاب، ولكنها كانت تصرفهم جميعاً. أما أنا فلم أكن أتدخل، ولكن عندما جاء «بجورنسون»، نصحتها بقبوله زوجاً، إنه مزارع حسن ذكي، موفق في عمله، كان من الممكن أن يصبحا زوجين رائعين. له هو، كنت أعهد بالمزرعة عن طيب خاطر، ولكن «كاترين» للأسف رفضت أن تطيعني. إن هذه الفتاة عنيدة كالبغلة. هل تعرف ماذا قالت لي :

– إذا أجبرتني على الزواج منه، فسألقي بنفسي في النهر .

ولقد أذهل هذا التهديد زوجتي، وربما لم يكن سوى مظهر للاصرار، أو ربما كان وغبة في معاندتي ومع كل، فقد كنت خائفاً، أنا أيضاً. إنها تشبهني إلى حد كبير، هذه الشيطانة، إنها لا تنزل عن رأيها أبداً، وهذا ظاهر من الطريقة التي ظلت

بها مخلصة لك طوال كل تلك الأعوام. وإنني أتساءل حقاً ما الذي يعجبها فيك .

فقال القس في هدوء :

– فليباركها الرب على كل هذا الوفاء .

– على كل حال، إنك لم تتقدم خطوة واحدة منذ عشرا سنوات .

فأجاب القس :

– إن الآلام الكبرى تترك الندبات، ولكنك لا تستطيع أن تفهم هذا .

– كلا بكل تأكيد، كل هذه المشاعر الجميلة ليست من مستواي، لم يتصور أحد أنني كنت أتألم أنا أيضاً . لم أكن أشكو أبداً، لكنني أستطيع أن أقول صراحة إن حياتي كانت قد أصبحت لاتطاق، وكان ذلك بسببك، فلولاك لظلت حياتنا سعيدة، ولتزوجت «كاترين» من أحد المزارعين! لقد كنت ألعنكما دائماً بلساني وبقلبي .

ودمدم القس وهو يحدق في المزارع العجوز بنظرة صافية :

– إنني لا إبالي بلعناتك .

– إنك تعتبر نفسك قديساً ! ..

– دعنا من المبالغة، لقد اجتهدت دائماً فى أن أتصرف وفقاً لضميرى .

– ما فائدة اجتهادنا إذا لم نتوصل إلى الحصول على ما نحب. أنا مثلاً لم أحاول قط أن أحارب طبيعتى الحقيقية، فهل تظن أن ما ترويه لهؤلاء الأغبياء المساكين – أقصد مريديك – هو انعكاس للحقيقة .

– نعم .

– فما قولك إذا لاحظت يوماً أن كل تعاليمك إنما هى قصص نساء طيبات لا تستند على أساس متين من الواقع .

فأردف القس وهو ينهض من فوق الكرسى :

– إننا نضيع وقتنا.

لم يكن يشعر بأية رغبة فى مواصلة الحديث مع ذلك العجوز الزنديق الذى لم يقترب من المائدة المقدسة أبداً، وينهال بالسخريات اللاذعة على الكنيسة المقدسة وتعاليمها .

وكان الشيخ يتفحصه بعين ساخرة .

ثم قال بلهجة آمرة قاطعة :

– اجلس!

فسأله القس :

– لماذا تريد أن أبقى وأستمع إلى تجديفك؟

– حسن، حسن. ربما كنت تود أن أباركك لأنك قضيت على سعادة أسرتى، ولكن لنكمل، إننى لم انته بعد من حديثى، فأرجوك أن تنصت لى حتى النهاية .

ولما كان القس يخشى، إن هو عارضه، أن يزيد من تفاقم مرضه، فقد جلس ثانية على الرغم منه، وبعد ذلك، ماتت «مارجريت» فجأة، كما لابد وأنك تذكر، لقد رأيتها تسقط أمامى، هنا، وعندما انحنيت عليها، كانت فاقدة الوعى .

ولقد ظل الناس يتصورون أننى لم أسكب عليها دمعة واحدة.

والحقيقة، أننى عندما رأيتها ميتة، سرى فى جسدى شئ ما، ومنذ ذلك اليوم لم أعد ذلك الشخص الذى كنته قبل ذلك تماماً، وحينما أرقدوها على فراش الموت، ظللت ساهراً عليها طوال الليل، وعند الفجر فقط رضيت أن أغادر الحجرة .

وبعد الجنازة، بدا المنزل فى نظرى فارغاً، ولقد انهلت على العمل كالمجنون،وكان يحدث لى فى بعض الأحيان أن أنسى أن «مارجريت» ماتت. فعندما كنت أعود إلى المنزل، كنت أناديها بأعلى عقيرتى: – «مرجريت» أين أنت؟

فتصل «كاترين» وهى تهرول مذعورة وتقول :

– آه، بابا، إنك تعلم جيداً أن أمى ماتت .

وعندئذ أدفع «كاترين»، وأدخل حجرة نومنا وأوصد الباب، لم أكن أدرك شيئاً من موقفى، وكما قلت لك لم أكن أعشق زوجتى، ولم أهتم قط بمعرفة ما إذا كانت جميلة أم لا، وعندما كان يسألنى أحد عن لون عينيها، كنت أجد مشقة فى الأجابة، كلا لقد كنت أجهل معنى الحب .

وحاولت أن أخفف من شجنى، ولكن ما الفائدة؟ لم أكن أفكر إلا فى «مارجريت» بل لقد انتهى بى الأمر إلى إهمال عملى، وكنت أمكث راقداً مدعياً المرض، وكنت أعتكف فى حجرتى، دون طعام أو شراب .

وبدأ الناس يرمقوننى بنظرات غريبة، ونصحنى بعضهم باستشارة أحد الأطباء، ولم أكن أعبأ كثيراً بآرائهم.. مدركاً أن أى سبيب لايمكن أن يشفينى، وكان عزائى الوحيد هو أنه ما من أحد كان يخطر بباله نوع المرض الذى كنت أعانيه، وكان يحدث لى فى لحظات الوحدة أن أجوب الدار كلها، هائماً من حجرة إلى حجرة، وكانت «مارجريت» تفعل ذلك، فقد كانت تحب أن تقوم بالتفتيش فى المنزل لتتأكد أن كل شئ فى مكانه، وكان يبدو لى فى بعض الأحيان أن «مارجريت» ترافقنى، فكنت أسمع

خطوات خفيفة بالقرب منى أو بجوارى تماماً، أو خلفى، وفى بعض الأحيان كان يبدو لى أنها تمر أمامى، وكان ثوبها يحف عند مرورها. عندئذ كنت أجلس وأجول بعينى من حولى، فقد كنت دائماً أتمنى أن أمسك صورتها لحظة واحدة .

وفى الغالب، كانت تأتى «كاترين» قلقة بعض الشىء، وتسألنى عما إذا كنت أبحث عن شىء ما. وكنت أجيبها بلهجة متقطعة :

– أنا ؟ كلا. لا أبحث عن شىء، كل ما هنالك أننى أنظر لأتأكد أن كل شئ فى مكانه .

إننى أريد أن أعرف ما إذا كنت سيدة بيت ممتازة مثل والدتك .

ولست أدرى إذا كانت تصدقنى أم لا، ومن المؤكد أن الناس بدأوا يوجهون إلى أنفسهم فيضاً من الأسئلة بشأن حالتى. كنت أرى ذلك فى عيونهم، مع أنه ماامن أحد منهم جرؤ على مصارحتى بالحديث .

كنت أجبر نفسى على البقاء فى الحقول والعمل مع الآخرين منذ مطلع الشمس حتى مغيبها، ولكن العمل لم يعد يثير اهتمامى على الإطلاق، ولم تكن بى سوى لهفة واحدة هى أن

أعود، أن أعود إلى البيت. ولست أدرى لماذا كان يبدو لى أننى بمجرد أن أعود إلى المنزل سأجد «مارجريت» وفى غالب الأحيان كنت أعتكف طوال اليوم فى حجرتى، وكنت أعلم تماماً أن العمال يستغلون ذلك وأن العلف لن يخزن فى الوقت المطلوب، ولكن الأمر كان بالنسبة لى سيان .

وفى بعض الأحيان وعندما كنت أتأكد تماماً أن أحداً لن يأتى ليزعجنى، كنت أفتح الدولاب وأخرج منه ملابس «مارجريت» قطعة قطعة، وأضمها إلى خدى، وأداعبها برقة، وكنت أقول كلاماً لم يخطر ببالى أبداً فى حياة «مارجريت»، كلاما كنت أحمر له خجلاً لو سمعه أحد. وكنت أبكى ولكن ذلك لم يكن يريحنى .

ونظر القس ملياً إلى الشيخ :

– والآن، لعلك تدرك ما عانيناه نحن، كاترين وأنا، طوال كل تلك السنين، فصاح المزارع بلهجة ازدراء :

– تقول إنك عانيت؟ ولكنك لم تفعل شيئاً منذ عشر سنوات من أجل تصحيح هذا الوضع.

فهمهم القس بطريقة آلية وهو بادى الذهول :

– ماذا كنت تريد منى أن أفعل؟ لقد كانت «كاترين» ترفض

أن تتزوجنى ضد رغبتك .

– أنت لست مقداماً، يا صديقى، كلا لن أقدم لك النصح، إنك لاتستحق ذلك.

إن الحب لايجرؤ على فعل شىء، الحب الذى يخاف، والذى يتوارى، هذا الحب فعلاً كلام فارغ.

إننى على ثقة من أن أغلب الناس يشاركوننى رأيى، إن الحب الحقيقى يرفع الجبال، إنه قوة لايقف فى سبيلها شىء، هذا هو رأيى. والآن، أنا على استعداد لأن أهبك مزرعة «جرينووتر» – بدون ندم

– وأهبك كل ما أملك مقابل أن أرى من جديد عزيزتى «مارجريت».

ومال القس على الشيخ، وصاح فى خبل والشرر يتطاير من عينيه:

– هل غيرت رأيك؟ هل تريد فعلاً أن تعطينى «كاترين»؟

– كلا، أنا لم أغير رأيى، إنك لست مطلقاً، وأكررها، إنك لست مطلقاً الرجل الذى أتمناه صهراً لى. إننى لا أرجع عما سبق أن قلته، لقد تغيرت مشاعرى فيما يتعلق بموضوعات أخرى، أما فيما يتصل بك أنت، فلقد كونت رأيى. لا تعتقد أنك

تثير إعجابى بوفائك الجميل لقد كنت طوال حياتى أحتقر أولئك الذين يتخلون عن المعركة بمجرد أن تصادفهم أول عقبة، وبوسعى أن أخبرك أننى لو كنت أحب «مارجريت» عندما طلبت يدها وتلقيت من والدها الرفض الذى تلقيته أنت منى، لما استطاعت قوة بشرية أن تفرق بيننا، ولما ظللت عشر سنوات جالساً على مؤخرتى فى انتظار تطور الأحداث .

وعند سماع هذه الكلمات نهض القس قافزاً، وصاح بأعلى صوته :

– لقد بدأت أفهم، إنك تفضل أن تموت على ألا ترجع فى موقفك،ولكنك لن تجد الوقت الكافى لكى تسخر منى، انتظر قليلاً.

وبينما كان الباب يصطك خلق القس، تراقص شعاع بهيج فى عينى الرجل الطيب الذى همهم من بين أسنانه :

– «هيه، حسن، كان لابد له من الوقت لكى يفهم».

أما الفلاحون الذين كانوا يعملون فى الحقل، بالقرب من المنزل، فقد شاهدوا القس يجتاز الباب خارجاً وهو يضم «كاترين» بين ذراعيه ويرفعها إلى جواده، ثم يقفز على السرج خلفها وينطلق راكداً بأقصى سرعة، ومن وراء ستائر حجرته، كان الشيخ يتابعهما بعينيه وهو يبتسم بكل تجاعيد وجهه .

خطة محكمة ... ولكن

جان فيردان

(الكونغو)



لم يكن ثمة غير شعاع واحد من الضوء، ينبعث من إحدى النوافذ، فى كتلة الظلام التى لفت مكاتب «شركة معادن كيماش المساهمة»... وكان صرير الحصى - المنتشر فى الممر - تحت وقع أقدام «آنسون» يعكر صفاء اللحن الذى كان يصدر عن «الجوقة» الليلية للصراصير البرية .

كانت الساعة تناهز الثامنة مساء.. ولم يثر دهشة «آنسون» ما بدا له من نشاط «سامى» أمين المخزن وهو شاب خلاسى تختلط فى عروقه الدماء البيضاء والزنجية، ويبدو أن شعوره بالقدر الضئيل من الدماء البيضاء - التى كانت تجرى فى عروقه - غرس فى ذهنه الرغبة فى أن يكون ممتازاً ومتميزاً عن سائر المستخدمين الملونين، الذين كانت بلادتهم الواضحة تسود مكاتب «شركة معادن كيماش المساهمة».

وتذكر «آنسون» كما يفعل الكثيرون حين يسترجعون ذكريات شبابهم من قبيل اللهو والتسلية - أنه ظل فترة طويلة يعتقد أنه والد «سامى».. أما الآن، فقد كف عن هذا الاعتقاد، كلا.. لم

يكن هو والده.. فلقد كانت معرفته بالنساء الوطنيات كافية لأن تصرفه عن هذا الوهم .

ودفع «آنسون» الباب الزجاجى - الذى كان يعكس على الممر ضوءاً خافتاً، فنهض «سامى» واقفاً.. كان على الدوام يبدو موزعاً بين الولاء المفرط، وبين صلف الزنوج.. وكان «آنسون» يتساءل أحياناً عما إذا كان هذا الصلف الذى لايكاد يبدو، يستمد جذوره من ذلك الاعتقاد بأبوته الموهومة.. ثم تمتم لنفسه: «ليكن.. إذا كان هذا الاعتقاد يسره، فليتشبث به، ولكن... على أن يحتفظ به لنفسه».

وبانحناءة تذلل أخيرة، أعاد «سامى» إغلاق الباب خلفه.. ودلف «آنسون» إلى مكتبه، دون أن يوقد المصباح.. كان ضوء القمر يضفى من النور ما يكفى لإنجاز ما كان يعتزم أن يفعل.. وكان التعب قد أضناه، فجلس متثاقلاً فى المقعد الوثير، بعيداً عن بساط النور الفيروزى الذى كان القمر ينشره تحت النافذة الوحيدة.. وأغمض عينيه غافلاً عن سحر الليل الأفريقى.. «رحماك يارب! لكم هو مرهق!.. ثلاثون عاماً فى أفريقيا لا تتخللها إلا بضعة شهور، ألتقطها من وقت لآخر لقضاء أجازة سريعة فى أوروبا. ولا يزال هناك احتمال قضاء عشرة أعوام

أخرى، فى هذه الأصقاع».

وتضاحك فى مرارة، وهو يقول لنفسه: «إنك لتوهم نفسك يا «آنسون». لم يعد ثمة عشرة أعوام.. لم يعد ثمة عام واحد، ولا حتى ستة أشهر.. «إنهم» سيطيحون بك قبل ذلك.. سيشمون رائحة السر قبل ذلك.. «إنه» سيشم رائحة السر، بأنفه الصغير القذر، أنف الدخيل، الوصولى.. ؟ «ابن الذوات».. ثم ماذا؟.. بتقرير سريع، بل بغير تقرير.. تكفى بضع كلمات، وبضعة أرقام، فى خطابه القادم إلى «بابا».. وبعد ذلك، ينفسح الطريق أمامه ليحتل مقعدك الوثير».

وراح «آنسون» يستعرض حياته الوظيفية.. سنوات التنقيب عن المعادن.. والتقدم البطئ المنهك داخل الأدغال.. لحظات الأمل العابرة.. الاكتشافات التافهة بعد شهور، بل بعد سنوات من العمل المضنى بلا جدوى.. والملاريا.. واليأس .

كان «آنسون» قد جاء إلى «الكونغو» بعد وفاة أمه، ليلحق بأبيه الذى كان يعمل فى التنقيب عن المعادن فى أفريقيا، ثم توفى الأب، فواصل هو التنقيب لحسابه الخاص، ولكن سنوات الأزمة الطاحنة هى التى قضت على استقلاله.. وقد شعر بسعادة عظيمة حين وجد عملاً فى «شركة معادن كيماش» التى

أنشأها بعض المتفائلين من رجال المال فى ذلك الوقت .

وكان «آنسون» هو الذى حقق للشركة ما بلغته من نجاح، فهل يكون هذا هو جزاؤه؟... كانوا قد عينوه مديراً بطبيعة الحال، ولم يكن مرتبه ضئيلاً، ولكنه مع ذلك لم يكن يوازى مايستحق. «إن سياسة الشركة تستهدف الاقتصاد، يا سيد «آنسون» هكذا اعتاد أن يقول والد هذا الفتى «أورين سميث».. هذا الأبله الذى ...

لم يكن من المستغرب - بعد ذلك - أن يحاول «آنسون» ان يقتطع لنفسه جزءاً من كل هذا الذهب الذى كان يملأ به أيدى أعضاء مجلس الإدارة.. ولم يكن هذا بالأمر العسير، فقد كانوا جميعاً يولونه ثقتهم، ولايفتأون يقولون عنه «السيد آنسون النزيه» ثم إن هذه البقعة - التى كانت مقراً لعمله - كانت تخلو من كل ما يمكن أن يجتذب مفتشى الحسابات ومن على شاكلتهم من الخبراء .

كان بوسعه - منذ الآن - أن يستغنى عن تلك المكافأة الضئيلة التى كان يمنحها «أورين سميث» - فى شح وتقتير - لمن يسمونهم بالمندوبين الساميين للشركة .

وقد كان هو الذى يقوم - فى نهاية كل أربعة أشهر -

بالإشراف على نقل شحنة الذهب المستخرج، إلى محطة السكة الحديدية التى تؤدى إلى ميناء (سيموس).

وكان يحرص على أن ينتخب للحراسة أشهر المشاغبين من الجنود الوطنيين. وكان فى كل شحنة، ودائماً، صندوق كتبت عليه كلمة «آلات»، يرسل إلى عنوان معين فى «سيموس» حيث يودع بصفة أمانة، ولما كان «آنسون» يتولى بنفسه تحرير الوثائق فقد كان يستطيع - بغير مشقة - أن يجعل كل شىء يبدو صحيحاً.. فلم يكن يعوزه إلا عملية تزييف بسيطة فى احصائيات الإنتاج وفى أرقام الحسابات،ليكون فى مأمن من كل خطر.. بشرط ألا يعقب ذلك عملية مراجعة جادة .

ولكن .. ها هم أولاء يرسلون إليه «أورين سميث - الابن»، ليقوم بالاطلاع على سير العمل فى المشروعات التى كان مقرراً أن يتولى إدارتها فيما بعد.. ومما زاد الطين بلة، أن هذا الابن كان يقوم بعمله بطريقة جادة .

انطلقت من بين شفتى «آنسون» بضع شتائم بصوت خافت.. لقد نجح حتى اليوم فى إقصاء «أورين سميث» عن الجانب الادارى من العمل، ولكن كان لابد لذلك من نهاية..«وهم» قد ألحوا له صباح اليوم - فى أدب ولكن فى حزم - بأن السيد

«أورين سميث – الابن» يهتم فعلاً بالجانب الفنى للعمل، ولكن استعدادته وميوله الشخصية تجعله أكثر اتجاهاً إلى الاهتمام بالجانب الإدارى .. ومن ثم فإنه اعتزم – فور انتهاء العطلة الأسبوعية – القيام بفحص دقيق للحسابات والأعمال الادارية بصفة عامة .

كان «آنسون» يعلم أن هذا لابد أن يحدث فى يوم من الأيام.. ولكنه لم يكن يتوقع أن يحدث قبل أن يقرر هو ذلك.. لم يكن يتوقع أن يحدث قبل أن يتمكن من أن يجعل بضعة آلاف من الكيلو مترات تفصل بينه وبين العدالة فى المستعمرة.. وبعد أن يتم ذلك، وبعد أن يجمع أمواله وينقلها، سيقولها عالية: «الودا ع»

ولقد كانت قوانين تسليم المجرمين غير معروفة كثيراً فى أمريكا اللاتينية فيما يقال.. فضلاً عن أنه بوسع أى امرئ يستبدل باسمه اسماً جديداً، مادام فى يديه مال. وها هى ذى الخطة الرائعة تبوء بالفشل ..

لقد أخذوه على غرة، قبل الأوان.. قبل الأوان بكثير.. وحتى لو حاول أن يهرب الآن فلن يجد تحت يده من المال مايكفى ليتيح له النجاة بنفسه.. وأخذ يلعن الحيطة الحمقاء التى دفعته إلى أن يضع كل أمواله فى الخارج.. وربما كان فى وسعه أن ينصرف،

لو أنه كان بمفرده، ولكن.. كانت هناك «واندا» .

كان قد تذكر فجأة - أثناء أجازته الأخيرة - أنه بلغ الخامسة والأربعين من العمر. ففكر في الزواج، حين رأى «واندا»... وكانت خبرته بالنساء ولاسيما الأوروبيات منهن ضئيلة، فبدت له الفتاة أنسب أنثى له.. صحيح أن عمرها كان - عندئذ - يقل عن عمره عشرين عاماً، ولكن لاحرج.. فقد كان قوى البنية بالنسبة لسنه، وما كان يمكن لأحد أن يقدر عمره بأكثر من أربعين عاماً.. لقد غازلها، ثم تزوجها قبل عودته إلى أفريقيا بخمسة عشر يوماً... وسرعان ما توالت الأيام والشهور، فإذا ثلاثة أعوام تنقضى منذ ذلك الحين وما كان يدرى - حين تزوج «واندا» - إن كان يحبها حقيقة. ولكنه أصبح لايتصور الحياة بدونها.. وأصابته غصة فى حلقه.. إنه لايستطيع أبداً أن يفقدها، مهما يكن الثمن.. لا، ينبغى أن يفقدها أبداً .

لقد أيقظ وصول هذا الشاب فى نفسه - لأول مرة - الشعور بالغيرة .. ولقد حاول «أورين سميث» منذ أول وهلة أن يغازل «واندا». وكانت هى فى بادئ الأمر تصده، ولكنها لم تلبث بعد ذلك أن تخاذلت، وإن كانت لم ترفع الكلفة بينها وبينه .

ولم ترق «لآنسون» هذه اللعبة كثيراً، بل إنها أثارت حفيظته

ضد ذلك الدخيل، بعد هذا كله، وعند النقطة التى وصل إليها، ما الذى يدعوه إلى أن يتراجع؟ لابد له من أن يمضى فى تنفيذ خطته، وأن يفعل ذلك بمهارة، وأن يتجنب – وبأى ثمن – إثارة شك «سميث».. إن أمامه الليل بطوله ليعد ضربته، كما أن أمامه نهار الأحد كذلك.. لابد أن يضع كل شىء فى موضعه الصحيح، حتى لايرتكب أية حماقة.. فإن أقل خطأ قد يؤدى إلى الهلاك.

ومهما يكن، فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث – بعد احتراق السجلات.. فى غير تعمد ظاهر – هو أن توجه إليه تهمة الإهمال، وأن يحال إلى المعاش قبل الأوان.. فهو لن يترك أى دليل ضده ... أما الشكوك... يا إلهى! إنها لا يمكن أن تحوم أبداً حوله .

وما إن اتخذ قراره، حتى بدأ يفكر فى خطته بطريقة جادة.. لاداعى للعجلة فهو لن يفعل شيئاً هذا المساء، ومن ثم فأمامه فترة مابعد ظهيرة اليوم التالى كلها. لا، ليس هذا المساء.. عليه أن يتجنب إثارة الشك فى نفس «أورين سميث»، بقيامه بنشاط غير عادى .

إن مباراة فى «الجولف» مع العدو – قبل المعركة – لشىء رائع.. شئ مريح للأعصاب.. ولقد أعاد هذا إلى ذهنه أول خطة

وضعها لإنقاذ موقفه. كانت خطة خطيرة جداً .. فضلاً عن أنها تتضمن.. حياة بشرية، ذلك أن رؤوس الجبال - التى تطل على وديان. «كاربوبو» الضيقة تعلو الشلال بعشرين متراً، ومن بينها رأس صخرى، يبدو كأنما أعد خصيصاً ليكون مكاناً للاستطلاع.. وهناك، يمكنه التظاهر بالإعياء، أو التعب المفاجىء، فيتهالك قائلاً : «فى مثل سنى يا سيد سميث، وبعد ثلاثين عاماً فى أفريقيا، هل لى أن أسألك بضع دقائق للراحة أمام هذا المنظر الرائع؟... شكراً شكراً جزيلاً.. هل تسمح لى؟».

وتمر لحظة.. وقد يظلان يلهثان قليلاً.. ولايلبث أن يقول : «هل لك فى شراب مرطب لاضرر منه؟.. زجاجة كوكاكولا؟.. عظيم.. يا غلام، اذهب واحضر لنا من النادى زجاجتين من الكوكاكولا». والآن، رحل الشاهد الوحيد لبضع دقائق، فالنادى على مسافة تتجاوز خمسمائة متر خلف نتوء فى الجبل.. ثم، دفعة بسيطة.. ياللسماء.. يا للشباب المسكين! لا أمل فى النجاة، فإن الهوة سحيقة، يصل عمقها إلى عشرين متراً، وفى أسفلها الصخور، والماء - والشاب لا يجيد السباحة.. ياللمسكين! ياللشاب المسكين!.. كم كان لطيفاً!!!

ولكن، كلا، يا للشيطان!.. هذه مجازفة تنطوى على أخطار

أكثر مما يجب .

إن الخطة محكمة بالتأكيد، وتخلو من أية ثغرة، ولكن.. ما الذى يجرى بعد ذلك؟... سيأتى «أورين سميث- الأب» مسرعاً.. وبعد لحظات من الراحة يقضيها فى التعبير عن ألمه الفاجع، لايلبث أن يقول: يا سيد آنسون إن العمل هو أنجح دواء لصرف الحزن.. هو وحده السبيل إلى النسيان.. فلننظر كيف سارت أعمالنا هذا العام؟.. هيا، هات لى دفاترك لو سمحت.. لاتنس دفتر السنوات الماضية حتى تتسنى لى وسيلة للمقارنة. يا للعجوز الرهيب الخبيث الرهيب!

وارتعد «آنسون»..! لن يكون القتل مهرباً.. لابد من حريق بسيط أيضاً.. نار نشعلها علامة على الفرح، كما يفعل فتيان الكشافة.. لاضير فى هذا، وسيكون البرد القارس تفسيراً كافياً للمدفأة، التى تركها «السيد آنسون الطيب» موقدة، عندما غادر الشركة.. كان المسكين مرهقاً، فقد قضى ساعات الليل ساهراً فى جمع كل الوثائق التى طلبها السيد «أورين سميث» وهذا القط الغبى، الذى اجتذبه الدفء، ولاتوجد غير اشلائه المحترقة، هو بلا شك الذى قلب المدفأة فوق البساط ..

* * *

تنحنح «آنسون» تعبيراً عن الرضا.. وتطلع إلى الساعة المضيئة، التى كانت تحيط معصمه: لم تعدت التاسعة والنصف.. وبدا له الوقت طويلاً جداً.. واستوثق - قبل انصرافه - من أن المدفأة الكهربائية تؤدى عملها بشكل طبيعى.. وفى الخارج، لسعته برودة الليل، فأسرع الخطى.. ستندهش «واندا» إذ تراه يعود مبكراً هكذا، إذ كان قد أخبرها بألا تنتظره، لأنه لن يعود قبل منتصف الليل.. واقترب من البيت، فأدهشه أن رأى الظلام والسكون يسودان كل شىء.. وتسلل عبر الممر المفضى إلى المدخل الرئيسى، فاصطدم بسيارة كان نصفها يختفى بين شجرتين، فلا سبيل إلى رؤيتها من الخارج.. كانت سيارة «أورين سميث».. ما الحكاية إذن ؟

وفى ضوء القمر، رأى «واندا» و«أورين» سميث يخرجان من المنزل صامتين ويتجهان صوب السيارة.. وغابا عن ناظره لحظة، ثم لم يلبث صوتهما أن تناهى إليه فجأة، فى وضوح تام:

انصرف الآن ... إننى خائفة.. لو رجع ..

- لاخطر على الاطلاق، هيا بنا.. ألم يخبرك بأنه لن يعود قبل منتصف الليل؟

- لا يا حبيبى، انصرف.. فى مساء الغد، نستطيع أن نفعل

مـايروق لنا، دون مـاخطر .. اذهب أرجـوك.. لم يعـد علينا أن ننتظر لأكثر من أربع وعشرين ساعة، ثم يلتئم شملنا إلى الأبد.. لاينبغى أن نخاطر.. سيكون الأمر رهيبا، لو خالجه أى شك .

ثم سمع محرك السيارة يدور، وسرعان ما انطلقت السيارة بعيداً، حتى لم يعد يبدو منها سوى بصيص من النور الأحمر فى حلكة الظلام.

الله وحده يعلم كم من الوقت مكث «آنسون» فى ذلك المكان، منكمشاً بين الأشجار.

وراح يحدث نفسه، وهو مذهول :

«واندا حبيبتى؟.. غير معقول، لابد أننى أحلم.. لابد أننى أحلم، ولن ألبث أن أستيقظ.. أنت مرهق يا آنسون... إنها الملاريا، إنه كابوس الحمى، إننى أكرهك يا «واندا».. أكرهك؟ .. كلا، لا أستطيع.. بل أكرهه هو الوغد الصغير القذر.. ماذا كانت تعنى بقولها بعد أربع وعشرين ساعة؟ لم يعد أمامنا أن ننتظر أكثر من أربع وعشرين ساعة؟.. أتراها سترحل معه؟ تهجرنى من أجل هذا الولد؟ هذا الوغد الطائش؟ أولى بها أن تقتل.. ولكن كلا، بل هو الذى يقتل».

وارتدت إلى ذهن «آنسون» الخطة التى كان قد دبرها.. خطة

بسـيطة، هى النمـوذج الرائع للجـريمـة الكاملة؟.. جـريمـة بدون دافع، وبدون فـاعل وبدون شـاهد.. دفـعـة بسـيطة، بحـركـة ودية تقريباً.. بالابهام لا أكثر.

واستيقظ عند الفجر، بعد أن قضى ليلته مستلقياً على أحد المقاعد، وكابوس مروع يقلق نومه، وأفـاده حمام فاتر، وأكمل انتعاشه قدح من القهوة.. وكانت معدته خاوية، ولكنه لم يستطع أن يأكل شيئاً، وإنما مزج قهوته بكأس كبيرة من الحليب، وشعر بأنه أصبح مستعداً للعمل، وبينما هو يهم بالخروج، سمع صوت سيارة تتوقف أمام المنزل، فتوقف قلبه عن النبض لحظة، وشعر بتقلص يعتصر معدته.. ياإلهى! ولكنه أحس بروحه ترتد إليه، حين سـمع صـوت «أورين سـميث» يناديه.. لقـد كـانت السـمـاء تساعده بالتأكيد فها هو ذا الغبى قد جاء إلى الفخ بقدميه .

– هالـلو سيد «آنسون» .. لقد فكرت فى مباراة صباحية فى الجولف...

– إن الطقس بديع، كعهده دائماً فى هذا الفصل من العام.. نعم بكل سرور.. طبعاً بكل سرور .

وتظاهر بالحرج وهو يحضر قبعته وصديريته الصوفية، ويتمتم معتذراً: «سيكون من العسير أن نعثر – فى هذه الساعة

– على صبى لجمع الكرات.. سأستدعى ابن خادمى ولنضع مضاربنا فى حقيبة واحدة».

ووافق «أورين سميث»، وهو شارد الفكر.. وبعد دقائق من اللعب اتجها معاً ناحية حافة القمة المطلة على البحر، وقد أصبح الأمر الآن سهلاً للغاية.. لعبة أطفال، وحين وصلا إلى كرتيهما، استجمع «آنسون» كل طاقته، فقد حانت اللحظة الحاسمة.. وسبقه «أورين سميث» قائلاً :

– ما رأيك أن نتناول هنا شراباً مرطباً، قبل استئناف اللعب؟.. هذا من شأنه أن يريح أعصابنا، وربما تحسن مستوى لعبنا بعد ذلك .

– كنت على وشك أن أقترح عليك هذا.. ماذا تحب أن تشرب؟ كوكاكولا؟... يا غلام، اذهب واحضر لنا من النادى زجاجتين من الكوكاكولا .

واختفى الولد بين الأشجار ..

– آه يا سيد «سميث»، ما أروع هذه المناظر.. إنها تنسيك وطأة ثلاثين عاما فى أفريقيا.. فى التراب، فى الوحل والملاريا.. انظر إلى الطبيعة .

كانت اللحظة الحاسمة قد أوشكت.. فها هما قد أصبحا

وحيدين، فوق صخرة معلقة بين السماء والأرض.. وشعر «آنسون» بأنه ثمل من فرط القوة.. إن حياة إنسان بين يديه الآن.. «إله .. أنا إله» ثم.. الفضاء.. الماء.. الصخور.. تقدم للقائها فى حركة رعب، ويداه مبسوطتان فى حركة دفاع عقيمة.

وكانت «واندا» تنتظر فى لهفة وقلق...

ولم تنبس بكلمة واحدة، حين رأته يعود وحده.

– انتهى الأمر يا حبيبتى.. كأنما كان يسعى إلى تيسير مهمتى، فقد تقدم من تلقاء نفسه إلى الحافة.. وكان يحدثنى عن الطبيعة، والسماء الزرقاء و... بدفعة خفيفة، انتهى كل شىء .

وكان «أورين سميث» يبدو منتشيا، حالما، وهو يتكلم..

– كان الأمر غاية فى السهول... ترى هل..؟

ولم تدعه يتم سؤاله، إذ أدركت ما طاف بخاطره...

– هيا يا حبيبتى.. كيف كان به أن يشك فى الأمر ؟

وهز «أورين سميث» كتفيه، وقال وهو شارد البال:

– كان رجلاً ساذجاً كل السذاجة.. بيد أنه كان متين البنية .



الجسر المعلق

توى آن هوانج

(فيتنام)



كانت طلقات النيران قد اقتربت من جميع الجهات.. وفجأة، اقترنت بها انفجارات عنيفة تصم الآذان، لا يعلم مصدرها إلا الله. أما سكان القرية الذين لم يرحلوا بعد، فلم يجدوا وقتاً للتفكير أو الجدال.. فسرعان ما أصبح صخب فرارهم الجنونى يتردد فى جميع الطرق المفضية إلى خارج القرية الصغيرة، والرعب والكرب يضاعفان صراخهم: «لقد أصبحنا فى قلب النار... لقد زحفت إلينا الجبهة». واندفع بعض الذين سمعوا آخر الأنباء - عند مدخل القرية - يسرعون إلى بيوتهم، ليحملوا منها كل ماتصل إليه إيديهم .

وبقى بعض منهم فى المؤخرة، ليساعدوا المسنين، وليحملوا الأطفال... وكدست النساء فوق ظهورهن ما كانت تضمه بيوتهن الفقيرة من أمتعة، بينما حمل الرجال على أكتافهم أدوات الزراعة وآلاتها.. وراح الجميع يتدافعون فى عجلة - فراراً من القرية المهددة دون أن تكون لدى واحد منهم فكرة محددة عن الوجهة التى يقصدها... فكانوا ينضمون - بلا وعى أو إرادة -

لأكثر الجماعات الهاربة عدداً، دون أن يعطوا لأنفسهم فرصة ليسألوا: من أى نواحى الجبهة ينبعث ضجيج المعركة؟... وإلى أية مسافة من القرية وصل المحاربون؟... كان كل همهم أن ينطلقوا فى فرارهم مسرعين، حاملين، أبناءهم وزادهم وأمتعتهم.

وبدا أن الطلقات كانت تنبعث من كل ناحية، وفى وقت واحد، تصحبها جلبة وسائل النقل التى كانت تتناهى إلى أسماع القرويين، فكانوا يحسون بها - أكثر مما كانوا يسمعونها - إذ كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم... وفى تدافعهم واضطرابهم، كان بعضهم يسقط فوق البعض الآخر، وكان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم، والأمهات ينفصلن عن أولادهن... فتتصاعد النداءات الملتاعة الملهوفة... وكلما قطعوا شوطاً، انضم إليهم فريق جديد، يضاعف ذعرهم بما يحمل من أنباء :

- لقد بلغوا الجسر ... لديهم مصفحات ... إنهم يطلقون النار على القرية .

وتأكيداً لهذا الخبر الأخير، مرقت فوق رؤوس النازحين- وهم مصطفون على ضفة النهر. مجموعات من القنابل القاصفة، فانبطحوا جميعاً على الأرض. وأطلقت النسوة عاصفة من

الصراخ والعويل :

– لقد أحاطوا بنا!... لقد حوصرنا! ... يجب أن نعبر النهر، فهذه هي فرصتنا الوحيدة للنجاة .

وفي حركة واحدة، اندفع المهاجرون نحو حافة النهر، وقد تركوا مناجلهم وأدواتهم وما كان يضايقهم حمله من حزم... والكهول منهم يئنون، والأطفال يبكون، ودوت من إحدى النساء صرخة ملتاعة، فارتفع صوت رجل يقول: «أغلقن أفواهكن أيتها النسوة!... إنهم إذا سمعونا فسيقصفوننا بالقنابل، فيمزقوننا إرباً إرباً». وإزاء هذا التحذير، كتم الكهول أناتهم، وأخذت الأمهات يسكتن أبناءهن ويلصقن راحاتهن بأفواههم.

وعلى طريق الجسر، أخذت ضوضاء المصفحات تدنو مختلطة بطلقات الرصاص، تعزف موسيقى الموت.. واستمر الضجيج الرهيب في الاقتراب والارتفاع .

ولكن الذين بلغوا ضفة النهر – أسفل طريق الجسر – لم يلبثوا أن هدأوا وكأنهم أيقنوا أنهم بلغوا– في النهاية – مأوى آمناً.. وعادوا يلتقطون أدواتهم وأمتعتهم التي كانوا قد ألقوها أرضاً.. وأسرع الأقوياء من الرجال إلى قواربهم المستديرة – الشبيهة بالسلال– فشرعوا ينقلون الهاربين، ويجدفون بكل ما

آتاهم الله من قوة .

وفى لحظة وجيزة، كانت القوارب قد غصت بالشيوخ والنسوة اللاتى حملن أطفالهن على أكتافهن.. أما الشبان، فاندفعوا إلى الماء، يعبرون النهر سباحة، وأفرد القارب الأخير للأمتعة التى لم يلتقطها أصحابها... وحين أصبحت القوارب فى عرض النهر - وهى تتمايل باضطراب ينذر بالخطر - أخذ العابرون يرتجفون خوفاً، إذ فطنوا إلى أنهم أصبحوا فى منطقة مكشوفة، مما يجعلهم هدفاً سهلاً للقنابل ... ولم يجرؤ أحد على الالتفات نحو القرية الصغيرة أو الشاطىء الذى وقف عنده من لم تتسع لهم القوارب، ينتظرون دورهم فى العبور، وهم نهب للرعب خشية أن يصيبهم العدو، قبل أن تعود إليهم القوارب... ولكن المجدفين راحوا يجدفون فى استبسال مستميت، فعادت القوارب مرات... وعندما تمت آخر رحلة عبر النهر، وتم نقل جميع الأمتعة إلى الضفة الأخرى، استرد الهاربون هدوءهم، وانبطحوا على الأرض، يرسلون أبصارهم نحو القرية التى هجروها إلى غير عودة .

* * *

كانت سماء القرية تتوارى فى سحب من دخان أسود تمزقه

من حين لآخر ألسنة اللهب وأخذت أعمدة الدخان وألسنة اللهب تتماوج وتتلوى كالأفاعى المذعورة.. وامتدت الحرائق من أحد أطراف القرية، حتى بلغت المبانى الرئيسية فيها، ثم تشعبت فانتشرت فى كافة الأنحاء، واجتاح الدخان كل شىء... وحملت الرياح الرماد إلى ضفة النهر، ثم عادت به إلى الضفة الأخرى لتصفع به وجوه الهاربين الذين التصقوا بالأرض فى ألم وذهول، وقد سمرتهم إليها فجائية الأحداث والدمار .

ومسح أحد الرجال وجهه الذى كساه الرماد، ثم أخذ يصرخ، وهو يحدق فى يده: «انظروا.. ثمار كل تلك السنين من الجهد والعناء، تتلاشى فى الدخان... أهذا مصير العمل الدائب والحرمان؟ يا إلهى»!!

وسمع كل امرىء هذه الحسرة، فكأنما كانت إشارة بدء، إذ أخذت الدموع تسيل من العيون... وأفلتت من الرجال زفرات أسى .

ولكن أحد المبرزين فى القرية، صاح بصوت قوى: «إن المصيبة مصيبة الوطن بأسره، فلا تعتقدون أن منازلكم وقريتكم وحدها هى التى أصابتها النيران».

وبينما هو يتكلم، صرخ أحد الموجودين: «انظروا. هناك، رجل

على الشاطىء... ومعه ثور».

واتجهت الأبصار جميعا إلى الضفة المقابلة... كان هناك رجل حقاً، لاح خلال الدخان وهو يقود ثوراً، ويسير في خط متعرج، كأنه كان يحاول تفادى الضربات التى كان يوجهها إليه خصم متوار عن الأنظار .

وعرف القرويون الرجل.. إنه «ترونج به» وثوره... وراحوا ينادونه، ويحيطون أفواههم براحاتهم، حتى تتضخم أصواتهم وتبلغ الشاطئ الآخر للنهر، ولكن... أكان من الممكن أن يسمع نداءاتهم وسط ضجيج القنابل والمفرقعات والمصفحات وطقطقة الأخشاب وأعواد الغاب المشتعلة ؟

ولوح «ترونج به» بيده. ثم شد الحبل ليقود الثور إلى منحدر يفضى إلى حافة النهر. ولكنه مالبث أن غير اتجاهه فجأة، ولاح أنه أراد أن يحتمى خلف جسم الحيوان، وفجأة، أنزل يديه وألصقهما ببطنه، بينما انتفض الثور جامحا، وأفلت وانطلق مترنحا، وكأنه أصيب هو الآخر... وأيقظ هذا المشهد الذعر بين القرويين من جديد، وأيقنوا أن الخطر يلاحقهم، فانطلقوا يجرون على غير هدى، مندفعين نحو مزارع الأرز التى جفت لطول ما هجرها أصحابها .

* * *

من خلال أحراش الغاب، تراءت – أخيراً – منازل سمراء وحمراء... تلك كانت طلائع منازل قرية «نكون»، وقد بدت بمتانة بنيانها ميناء أو مرفأ يلوذون به من الموت الذى كان يلاحقهم من ضفة النهر الأخرى.

وأخذوا يركضون إلى «نكون» بأقصى ماوسعهم من سرعة، وقد تقطعت أنفاسهم، وتصبب عرقهم انصبابا.. وكان القادرون يأخذون بأيدى المسنين، ويجرون وراءهم الأطفال.. ولكنهم، وبعد أن عبروا نحو اثنتى عشرة مزرعة، فوجئوا بجماعة أخرى من الهاربين تبرز من أحد الأدغال إلى يمينهم ..

وخيل إليهم أنهم ينظرون إلى صورتهم فى مرآة: كان الآخرون مثلهم، جمهرة من الناس مثقلين بالأدوات والحزم، يفرون والموت فى أعقابهم.. فمن الجانب الآخر للدغل، كان ثمة خط النيران، تنطلق من ورائه القنابل كثيفة مركزة، وصاح شخص ما: «إنها عملية تطويق، فهم على جانبى النهر... كيف السبيل إلى النجاة؟»

وأدرك الفارون أنهم وقعوا بين نارين، بعد أن ظنوا أنهم قد بلغوا ملجأ أميناً، فى قرية منعزلة عن المعركة.

كيف السبيل إلى النجاة ؟

وتجمدوا فى أماكنهم، لايدرون إلى أين يذهبون.. وأخذت حلقة النيران تضيق من حولهم فى كل لحظة... وازداد ارتفاع قصف المدافع، وهى تقترب من ناحية «نكون».

وانبعث من الفريق الآخر من الفارين صيحات التحذير :

– اتبعونا، فنحن على دراية بكل الطرق..! إننا نيمم شطر (يين دا)، لنختبىء فى الجبال.

وعادوا إلى الجرى، يحاولون اللحاق بالجماعة الثانية .

* * *

أخذت حدة الشمس تخف فوق مزارع الأرز، وهدأت حرارة الجو.. ولم يجرؤ أحد من القرويين على التوقف، بالرغم مما أصابهم من إرهاق، بل إن أحداً لم يعد يحفل بأنين الشيوخ وعويل النسوة والأطفال.. واستمر الجميع فى هرولتهم خلال السهل المقفر، المترامى.. وزاد الطين بلة، أن أخذت السحب المنخفضة تتكاثف ثم تساقط المطر مصحوباً ببرد قارس.. ولكن، ماذا يهم المطر والبرد؟... لم يكن القوم يفكرون إلا فيما بقى من مسافة بينهم وبين الملاذ الآمن .

ولما كان القادمون من «نجين» يجهلون موقع «يين دا»، فقد

كانوا يسألون العارفين، فيجيبونهم:

– لا تزال المسافة بعيدة.. هناك جسر معلق فى الفضاء، فوق مجرى مائى عندما تجتازونه، تكونون قد وصلتم إلى مقاطعة «يين دا».

ومالبث الجسر الصغير أن لاح – خلال ستار المطر وضباب المساء – وكأنه يطفو فى الهواء، وعوارضه الرقيقة، المصنوعة من الغاب،، تتأرجح وسط الرياح بشدة تنذر بالخطر ..

والليل يهبط مسرعاً، والسماء محجوبة بسحب سوداء كثيفة، ينعكس عليها وهج النيران.. فكأنما السماء وحش خرافى مرعب، ينبعث منه دخان ولهب .

* * *

وازدادت معالم الجسر وضوحاً، فابتسم بعض الهاربين، وقد أخذت الطمأنينة تخالجهم. كان قصف القنابل لايزال مركزاً، ولكنهم شعروا بأنهم تجاوزوا نطاق الخطر.. وراح بعض المسنين يلهجون بالدعاء، وعيونهم معلقة بالجسر المتاخم للحدود.

* * *

على أن الحيرة عاودت القوم، عندما بلغوا الجسر المعلق.. لم يكن مجرى الماء واسعاً، ولكن كان بالغ العمق... وكان التيار

سريعاً وقوياً، والمسافة بين أسفل الجسر وسطح الماء لاتجاوز الشبر، ولم يثر بنيان الجسر عجب أحد. كان مكونا من سيقان من الغاب طويلة بعرض المجرى مربوطة من الطرفين ومرتكزة فوق مجموعات أخرى من الغاب، كل وحدة تتألف من ساقين على شكل صليب، غرست فى المياه لتكون دعامات... وكان ثمة سياج من الغاب المضغوط على جانبى الجسر، ليتكىء عليه العابرون، وفى غمرة القلق، انبعثت نصائح الفارين وتساؤلاتهم:

– والآن.. ألم يبق إلا أن نجتاز الجسر؟

– بلى. هذا أمر يسير على الشبان... ولكن... النساء والشيوخ والأطفال؟... وكيف تنقل الأمتعة فوق الجسر؟

وسأل أعيان القرية زملاءهم من قرية (نكون) :

– أما من طريق آخر لعبور النهر؟... ليس بوسعنا أن نظل هنا جميعا، فى انتظار أن يعبر القوم النهر واحدا واحدا، فوق هذا الجسر الضعيف .

وفجأة، وقع انفجار رهيب وراء القوم، على مسافة مائة متر تقريباً، فقطع الحوار. ونثر الوحل فوق رؤوس الهاربين، وتوالت الانفجارات... ولعل المدافع كانت تطلق قنابلها جزافاً من الشاطىء الآخر، ولكن الهاربين ظنوا أن العدو يصوب قذائفه

عليهم، فاستبد بهم الذعر، وعلا صراخهم، وغاص بعضهم فى الماء يحاولون اجتياز المجرى سباحة، وتدافع البعض الآخر نحو الجسر، فأخذ يهتز بعنف تحت ثقلهم ...

وبقيت قلة ضئيلة احتفظ أفرادها برباطة جأشهم، وراحوا يحاولون إقرار قسط من النظام، ويرفعون أصواتهم وسط الصخب والضجيج: «اعبروا الجسر فرادى.. واحداً واحداً، ولاتثقلوه، وإلا غرقتم جميعاً».

هذه التحذيرات كانت ستذهب دون تأثير، لو أن مجموعة أخرى من القنابل تبعت الأولى... ولكن القنابل انقطعت... غير أن الجسر كان مبعث خطر لايقل عن خطر المقذوفات، إذ أخذ يهتز بشدة تحت الخطوات الملهوفة، وكأنه وشيك الانهيار، وما كان انهياره فى المياه السريعة الجريان – ليثير دهشة أو عجباً مع التزاحم والاضطراب .

وبعد أن عبر الجسر عدد من الأفراد، تقدمت إليه عجوز تحمل على كتفها عصا طويلة من الخشب، علقت فى طرفيها سلتين. وكان الليل قد لف المكان، فلم ير الرجل – الذى كان خلف العجوز– شيئاً من محتويات السلتين، وقال للمرأة:

– ألق بهذا فى النهر!... ستكونين سعيدة الحظ لو استطعت

العبور وحدك دون أن تثقلى الجسر بالسلتين.

وتشبثت المرأة بالسلتين فى اصرار، وقد رابها قول الرجل الذى لم تكن تعرفه. وكأنما أثاره إصرارها فهز السلتين بخشونة، وإذا بصراخ طفل ينبعث من احداهما، فصاح الرجل: «ماذا تحملين فيهما؟».

ورأى المحيطون بهما طفلاً – فى حوالى الثالثة أو الرابعة من عمره – قابعاً فى إحدى السلتين... بينما استغرق فى النوم – فى السلة الثانية – وليد صغير .

– يا الله !... كيف تريدين عبور الجسر بهذين الولدين؟

وأجابته السيدة فى جفاء:

– «سأفعل... لقد عبرت – من قبل – جسوراً أسوأ حالاً، بأحمال أثقل».

وأخذ القوم يرقبون المرأة، بانفعال بالغ، وهى تتقدم ببطء فوق أعواد الغاب تحت ستار المطر الدقيق، الذى تخلله ضوء القمر الشاحب... كانت محاولتها ضرباً من المجازفة.. وقال بعض الحاضرين لأنفسهم، وهم يقدرون الاحتمالات، «إن نجاحها فى بلوغ الشاطىء الآخر بسلام – لو استطاعت – فأل حسن يبشر المهاجرين بأنهم سيبلغون قرية «يين دا»، دون خطر».

ولكن القنابل عادت تستأنف قصفها فجأة، وقد ازدادت قرباً... وقبل أن يجد أحدا فرصة للانبطاح فوق الأرض، انفجرت قنبلة وسط الجموع المتزاحمة أمام الجسر. وفى غمرة الاضطراب الجنونى، أخذ الكثيرون يلقون بأنفسهم فى مجرى الماء، بينما تدافعت أعداد كثيرة نحو الجسر .

والتفتت السيدة خلفها بعد أن بلغت منتصف الجسر، وقد شل الذعر حركتها، وتشبثت بكل قوتها بسور الجسر الذى بدأ يتأرجح فى عنف بسبب تدافع الفارين، وفجأة مالت إحدى السلتين ميلاً شديداً، فاختل توازن العصا فوق كتفى السيدة فسقطت مع السلتين فى الماء .

وضاع صراخ الأم وعويلها وسط ضجيج الناس وقصف القنابل .



قصة لم تنشر

ماجى فانسون

(جامايكا)



ها نحن أولاء، فى نهاية يوم من أيام الصيف الجميلة، جالسون أمام النوافذ المفتوحة نثرثر، ولا أرى شيئاً أقصه عليكم أفضل من قصة عم زوجتى والسيدة العجوز صاحبة المنزل الذى كنت أسكنه .

ليست هذه أول مرة، أيها الأصدقاء، نجتمع فيها على هذا النحو، ساعة الغروب، ويجب أن تعترفوا أننى أنا دائماً الذى يبدأ بالحديث. صحيح أن لسانى يأكلنى بلا انقطاع، وأننى أشعر برغبة عارمة فى أن أسرد عليكم قصصى الغريبة، تذكروا كل تلك القصص التى رويتها لكم! مليئة بالحركة، والاثارة، والمغامرات. كنت أقدمها لكم كما وصلتنى تماماً... دون تضخيم فى الأحداث، ودون محاولة للتخفيف منها، أو تلطيفها أو صقلها. كنت أقدمها لكم ثماراً ناضجة مفعمة بالعصارة، داخل قشور يابسة، بالضبط كما كنتم تحبونها. وعندما كان يحدث، فى بعض الحكايات العنيفة بنوع خاص، أن أتجاوز الحدود، كنتم تنهالون على بضوضائكم وصخبكم. يا للمناقشات الحامية التى

كانت تدور بيننا حينئذ! كنا نتقاذف فوق الرءوس بكلمات أحسن تصويبها، كلمات وعرة مثل الجرانيت مدببة مثل السهام، أو محملة بالشرر، كلمات مستديرة، مصقولة كالحصى الذى تصقله مياه البحر، ويستمر فى التدحرج بلا مجهود... وكلمات أخرى أشبه بحجارة هينة، تتفتت وتستحيل تراباً، وكنا نلزم الصمت... فى وقفات لطيفة مريحة... وبعد ذلك كان كل منكم يعود إلى منزله، محتداً بعض الشىء، متعباً بعض الشىء، ولكنه يكون باسماً سعيداً .

ولكننى اليوم أشعر باكتئاب. لاتسخروا منى، أيها الأصدقاء فهذا جزء من طبيعتى. واسألوا زوجتى. لقد اجتهدت دائماً فى ألا أقص القصة نفسها فى حضرتها مرتين، فإننى أخشى أن أضايقها. ومع ذلك فهى تعرف هذه القصة التى سأرويها لكم الآن. فيبدو أن جو هذا المنزل قد أصبح مشبعاً بهذه القصة. هل اقتراب الخريف هو الذى يذكرنى بها؟ أم الزهرة التى تذوى على غصنها، أم الغبار الذى يدكن كل ورقة، الغبار رمز الأشياء المنسية المهملة؟ أم نهاية النهار، ساعة الغروب؟ لست أدرى .

إن القصة التى سأرويها لكم قصة قديمة جداً. كنت، فى ذلك العصر، لا أزال شاباً خالى البال، قليل المال والمتاع، أتنقل هنا

وهناك بحثاً عن الآفاق الجديدة والمناظر الجذابة التى تصلح للتصوير. ويجب أن أخبركم بأننى كنت أدرس فن التصوير. وذات يوم اجتزت مدينة صغيرة، خلبنى سحرها الغريب القديم لدرجة أننى قررت ألا أبحث أبعد من ذلك، وأن أستقر فيها، واستطعت ببحث سريع أن أهتدى إلى مسكن رخيص. وقد عاهدت نفسى أن أشكر السيدة الشابة التى عثرت بفضلها على ذلك المسكن، وبالطبع نسيت عهدى.

كان المسكن يختفى وراء جدار ضخم من الحجارة لدرجة أننى كدت أن أمر من أمامه دون أن أراه. كنت أسرع فى السير، وكانت الريح تتوغل فى معطفى الذى كانت ثناياه تطرقع مثل الغسيل على الحبل، وكانت ثمة أوراق من جميع الألوان تتطاير أمامى على طول الطرق الضيقة، ولم تكن تلك الطرق سوى شوارع ضيقة متعرجة. وكانت وهى مغطاة بالأوراق التى تلمع مثل الصدف، أشبه شىء بالأفاعى الضخمة التى تنام تحت شمس الخريف .

ودفعت الباب الحديدى الذى انفتح فى سكون، ولقد دهشت لذلك. فقد كنت اتوقع صرير مقاومة، كما لو كنت أعرف خصائص ذلك البيت الذى كنت أراه لأول مرة فى حياتى.

ولمحت بعض سلال الزهور وعرفت من بينها الداليا واللؤلؤ والأقحوان ذى الشعور الذهبية، ورأيت وسط هذه الزهور بستانياً عجوزاً، أحناه عبء السنين، كان يتأمل إنتاجه بعين المندهش .

وتحدثت إليه، ولكنه لم يجبنى، وشعرت إلى أى حد كان يشكل جزءاً من ذلك المنزل الذى كان يعيش منطوياً على نفسه، معزولاً عن العالم .

وأقبلت خادمة حيية، ففتحت الباب وطلبت إلى أن أنتظر فى الردهة، وكانت فسيحة، ولكنها كانت مزدحمة لدرجة أن المرء لايستطيع أن يجتازها إلا بعد سلسلة من اللف والدوران، وعلى الجدر علقت بعض الطيور المحنطة التى كانت تنشر اجنحتها المعفرة كأنها فى تأهب للطيران، وخلف بعض الواجهات الزجاجية، لمحت أسماكاً محنطة ترمقنى بعيونها الزجاجية الضخمة، وكان خشب الخزانات الثقيلة المصقول، وجلد الكراسى القاتم يلمعان خفيفاً فى شبه الظلمة التى كانت تشمل المكان، وكانت توجد بعض الزهور الصناعية التى زال رونق ألوانها، موضوعة فى إناء زهر قديم فوق كرسى معوج القوائم، وكان يلوح أن تلك الزهور موجودة فى ذلك المكان منذ عشرات

السنين، وكانت هناك بعض المرايا القديمة تشغل الفراغ القليل الموجود، وفوق ذلك كله يحلق هيكل ثريا هائلة .

كنت أفتح عينى على سعتهما، وسرعان ما لمحت وسط تلك الأشياء القديمة، بعض السيوف التى أكلها الصدأ، ولم أستبعد أن يخرج واحد من أهل الدار مهرولا إلى تلك الأسلحة لكى يدافع عن المنزل الغريب ضد أحد المعتدين.

ولكن كان قد جاء من يستدعينى. وبينما أنا مأخوذ بالطابع الغريب الذى يلف تلك الردهة التى مكثت فيها وحدى عدة لحظات، دخلت الحجرة على عجل، وكانت حجرة استقبال صغيرة ادخلتنى إليها الخادمة الشابة. وظننت حينئذ أن حلمى قد توقف عند ذلك الحد، لأن حجرة الاستقبال لم تكن تتشابه فى شىء مع الردهة الخرافية. بل على العكس كانت مؤثثة بطريقة تنم عن البساطة والتقتير. ولكننى ما إن تخلصت من وطأة الظلمة التى كانت تغمر قطع الأثاث، حتى لمحت عجوزاً طاعنة فى السن جالسة بالقرب من معزف حالك السواد، تثقله تماثيل من الخزف ران عليها الدهر، أما الشىء الذى أثار انتباهى فى بادىء الأمر، فقد كان ذلك الانسجام التام بين العجوز وبين المكان الذى كانت تعيش فيه، لقد كانت، مثل السيوف أو الطيور

المعفرة، تمثل جزءاً من الكل. وبينما كنت أتقدم نحوها، أدركت أنها قعيدة، فقد كان ثمة عكازان ثقيلان يستندان إلى كرسيها الموسد .

وقالت فى لهجة مقدمة أو ديباجة :

– إن زيارتك تثبت لى أن العالم الخارجى موجود بالفعل .

ولقد رسخت هذه الجملة فى ذهنى، لأننى كنت أشعر حقاً أننى فى نظرها رمز للعالم، ولم أدخر وسعاً فى استخدام كل مصادر الخيال عندى لكى أؤكد لديها هذه الفكرة الثمينة، ومازلت بها حتى أقمت فى المنزل بعد حديث طويل مع العجوز التى بلغت من الكبر عتياً .

الآنسة «سيبيل جيندين» لم تكن متزوجة، ومنذ خمسة وعشرين عاماً لم تطأ قدمها خارج الدار. وعندما أصبحت قعيدة على اثر حادث ألم بها، اعتكفت فى منزلها ولم يعد للعالم الخارجى وجود بالنسبة لها. ولم يكن يدخل المنزل الرمادى الساكن أى خبر، بل ولا حتى صدى الحياة التى كانت تجرى وراء الجدار الحجرى، إن كل ما كانت ترتديه، من ثياب وحلى عنى باختيارها، والطريقة التى كانت تسوى بها شعرها، ذلك كله يرجع إلى العصر الذى قررت فيه ألا تطل برأسها خارج الدار .

ولم تكن صاحبة البيت لتخلو من العيوب. معاذ الله. فقد كانت امرأة عنيدة، مدعية، مسرفة فى الشح - مع أن الايجار لم يزد مليماً واحداً منذ عشرين عاماً. ومع ذلك فإننى لم أكن أنظر إليها فقط بعين المصور، فى تلك الإضاءة الغريبة. وكنت أكثر من زيارتها، ولكننى نادراً ما كنت أصورها. ولقد كانت تنشر حولها جوا من شأنه أن يفرض الاحترام، ويصرف الضحك أو البكاء، وكانت الآنسة «سيبيل» سريعة الغضب وكانت تسعى إلى العراك معى، وترسل إلى خطابات عدائية، وكانت تحاول أن تتجاهلنى، وتتخذ هيئة الملكة المهانة، وهى تجلس فى ركنها، متحصنة بصمت يتسم بالاستهجان، ولكنها كانت تعبس بوجهها وتغير سحنتها بشكل يثير الضحك، حينئذ كنت أغفر لها كل شيء.

وفى كل مرة كانت تدعونى فيها لزيارتها، كانت تنتقى من صوان ملابسها العتيق أروع مافيه من زينة، وتصبغ خديها بطريقة تنم عن تعاجب بوجهها، وتتوسل إلى أن أبقى بعض الوقت. كانت، على حد تعبيرهم تمثل جمهوراً ممتازاً، وكانت تظل متعلقة بشفتى، لاهثة، دون أن تنبث بكلمة، خشية أن تفسد سحر الخيال. وما إن كانت القصة تنتهى حتى تبدو أكثر حزناً وأكثر بعداً مما كانت. وفى بعض الأحيان كانت تجلس إلى

المعـزف وتعـزف من أجلى أنا وحـدى، ولكننى كنت أفـضل أن أستمع إليها وهى تروى لى قصصـها الخاصـة، ولقد كانت لديها قصة عن كل تمثال من التماثيل التى كانت تغطى المعزف، والتى كنت أطلق عليـها: «يومـيـات الآنسـة جـيندين الخـزفـيـة»، وكـانت قصصـها ذات وقـع غريب، وسـحر عجيب لزمنى فترة طويلة بعد أن تركت صـديقتى العجوز، بل إنه يـحدث لى فى بعض الأحيـان أن أتناول لوحة وأترجم عليها تلك الصـور الحـافلة بالألوان التى كانت تولدها فى خيالى .

كـان لـدى الآنسـة «جـيندين» «حـديقـتـهـا السـرية» التى كـانت تمنع دخولها بدافع الغيرة، لهذا كـانت ترفض دائماً أن تروى لى قـصـة حـارس ليلى صـغـيـر من الخـزف كـان يبـدو أنه يحـتل فى قلبـها مكانة كبيرة. فـقد كنت أراها تشـحب من فرط الانفـعـال بمجـرد أن تمس اصابعها ذلك التمثـال الصـغير، وكانت تتجشم مشـقة كبيرة لكى تستعيد حـالتهـا الطبيـعية، وكـان وجودى فى حــجــرة الاســتــقــبــال، فى تلك الأثناء، لا يؤدى إلا إلى زيادة اضطرابها وارتباكها. كم كنت اراها مؤثرة، حينذاك! ثم تضغط على شفتيها، ويستغلق وجهها تماماً .

فى الطابق العلوى الذى لايستطيع أن تبلغه الآنسة «جيندين»

كان يسكن سيدان متقدمان فى السن. وأعتقد تماماً أنها لم ترهما على الاطلاق، ولقد صادفتهما أنا مرتين أو ثلاث مرات على السلم. فوجدتهما رجلين لا غبار عليهما ولا يثيران الاهتمام.

وكانت الخادمة الشابة لاتنفك ترتدى ثوباً اسود لايعاب ومئزراً أبيض منشياً، لأن الآنسة «جيندين» ما كانت لتسمح أبداً بأدنى إهمال فى زينتها، وكانت الخادمة تخصص وقتاً قصيراً للغاية للعناية بالحجرتين اللتين يشغلهما المستأجران. وكانت تقضى جل نهارها جالسة فوق كرسى فى المطبخ الذى يفضى إلى مخزن تكدست فيه برطمانات الفواكه والخضر المحفوظة، وأكياساً صغيرة بيضاء من القماش تحتوى على خبز جاف، فلقد كان يبدو أن صاحبة الدار العجوز تخشى بصفة خاصة وقوع مجاعة وكانت تحتاط لذلك.

وذات يوم، لاحظت أن جو المنزل المقفول المشبع بالعفار وطابع المدينة العتيق اصبحا بالنسبة لى شيئاً لايطاق. إن كل ما كان فى الماضى يجذب خيالى أصبح الآن يثير أعصابى. ربما كان هذا حال أجمل الأشياء، ولما رأيت أننى لن أغير الجو منذ عهد بعيد، حزمت حقيبتى .

وعندما ذهبت لأودع صديقتى العانس، شحب وجهها، وراحت، وهى تستند بيدها على عصاها، تنقب بين مجموعة تماثيلها العزيزة، كانت اصابعها ترتعد وكان وجهها يرسم تعبيراً رقيقاً حالما لدرجة بالغة.. وظننت لحظة أنها نسيتنى. وكنت أنتظر بفارغ الصبر وأنا أتخطر فى المكان. ثم التفتت نحوى ودست فى يدى تمثالها المفضل، الذى يمثل الحارس الليلى الصغير، وهى تهمهم قائلة:

– حاول ألا تنسنى تماماً.

كنت بالغ التأثر، بالغ الذهول، حتى إننى لم أجد كلمة أجيبها بها .

ولم ألبث، للأسف أن نسيت صديقتى العجوز! فقد كنت قد غادرت المدينة، وسلكت حياة مختلفة كل الاختلاف. فما إن عدت إلى مسقط رأسى، حتى تزوجت وعشت حياة سعيدة للغاية. وكان بيتنا فسيحا مشمساً، مليئاً بجمهور من الأصدقاء. وكان كل مافيه يفيض بالبهجة والشباب. وكان به أثاث فاتح اللون بسيط التكوين مريحاً للنظر، ونباتات خضراء فى اصص زاهية الألوان .

ومع ذلك فقد كان يحدث لى فى بعض الأحيان أن أشتاق إلى

التحف القديمة التى كانت موجودة فى المنزل الرمادى القديم، كما كنت أشتاق إلى الجمال البالى، ورائحة الناردين والنفتالين التى كانت تنبعث من المنزل، ولمواساتى، كانت زوجتى تشير لى بأصبعها، إلى الحارس الليلى الصغير وتلومنى وهى تضحك لأننى لم أستطع أن أستعلم عن قصته، التى كانت تشك أنها قصة عاطفية. وكان على، عند سماعها، أن أستعيد أسرار العانس وأقص من حياتها الجانب الذى يتصل بالحارس الليلى.

وظل هذا الحارس صامتاً مستغلقاً، ولم يكن يذكرنا بشىء، نحن معشر الآخرين، بل لم يكن يذكرنا حتى بالوقت المتأخر، أو مرور الزمن. إن الشخص الوحيد الذى بدأ أنه كان يوليه بعض الاهتمام كان عم زوجتى. فما كنت أبدأ الحديث عن الآنسة «جينيدين»، حتى أسمع رنين ضحكات زوجتى، لقد كانت علاقاتى بالمالكة العجوز تسليها بطريقة عجيبة. وكانت هذه السخرية الخفيفة غير المكترثة، وتهكمات أصدقائى، الذين كانوا لايتركون فرصة دون أن يعاكسونى بسبب «جميلتى ذات الخشب النائم»، كانت كل هذه الأمور تترك فى نفسى شعوراً خفيفاً بالمرارة. فمما لاشك فيه أننى أضعت وقتاً طويلاً فى ذلك المنزل، وكان هذا التهكم يمنعنى من التحدث عن ذلك، ولكن الشىء

الغريب هو أن هذا التمثال كان يجذب عم زوجتى، لذلك فقد رويت له كل ما كنت أعرفه عن تلك التى أعطتنى إياه، وهى الآنسة «سيبيل جينيدين». فبدت عليه الدهشة البالغة لسماع قصتها، وغير موضوع الحديث بطريقة توحى بالتأثر والاحتداد، ومع ذلك فإن الاهتمام الذى أولاه للتمثال، والأذن الصاغية التى استمع بها إلى قصته أثاراً فى نفسى تلك الذكريات القديمة التى كنت أظن أنها دفنت إلى الأبد فى عالم النسيان .

كان عمى هذا رجلاً بهيجاً محباً للفكاهة،وكان على الرغم من سنه، لايزال يتطلع إلى الفتيات الجميلات اللاتى يصادفهن فى طريقه.. وكان يقول: إنه لم يكن فى حياته ذا طبيعة عاطفية، لذلك فإن الحب، فى رأيه، يطرد الحب الآخر. أما الآن، فوا أسفاه! لقد مضى زمن الحب، وكان يدرك ذلك ويأسف عليه.

لقد ظهر أن وصفى للسيدة العجوز قد سبب له اضطرابا عميقاً، وبعد ذلك بفترة عاد إلى داره.

وذات يوم، لاحظت أننى أشعر برغبة عارمة فى رؤية المدينة الصغيرة الساحرة ومنزل الآنسة «جينيدين» الرمادى القديم، ولما كان ينتابنى شعور غامض بأننى قد أصل بعد فوات الآوان، فقد كتبت إليها فى الحال. وسرعان ما جاءنى الرد، تخبرنى فيه

بأنها سعيدة للغاية لرؤيتى مرة أخرى وأنها تنتظرنى بفارغ الصبر، فرحلت وقلبى يفيض بالسعادة، وأنا أشعر، بالذكريات تلاحقنى وهى تزداد كلما اقترب القطار من تلك الأماكن التى عشت فيها ساعات كثيرة رائعة .

ووجدتنى، وأنا لاهث الأنفاس بعض الشىء، أمام الجدار المرتفع. وكم كانت دهشتى عندما وجدت أن الباب قد أعيد طلاؤه من جديد وأنه يلف على محوره دون أن يصدر عنه أدنى صرير. وكان ثمة ستائر جديدة، ذات رسوم حديثة، تتدلى من النوافذ، ولأول وهلة، لم يكن داخل المنزل قد تغير. ولما لم تقو الآنسة «جينيدين» على كتم فرحتها، فقد تركت كرسيها بمجرد أن لمحتنى وأقبلت للقائى، ووجهها يفيض بالسعادة، ورأيتها وهى تتقدم نحوى، فى مشيتها العرجاء. وضمتنى بين ذراعيها. ولقد شعرت ببعض الخيبة، لأنها كانت قد هجرت زينتها القديمة التى كانت تناسبها كثيراً، وارتدت ثوباً من آخر طراز تقريباً، ولقد أفقدها هذا التغيير كثيرا من جاذبيتها القديمة.

وقالت لى بعد ذلك بقليل :

– هل تعلم أننى أردت أن أرى العالم مرة أخرى؟ فبعد رحيلك بقليل، استأجرت عربة وقمت بجولة فى المدينة. كان قد

مضى زمن طويل منذ أن اعتزلت كل تلك الأشياء التى تتصل بالماضى .

وألقيت نظرة على المعزف، فلقيته خالياً. وكانت تتابع نظرتى فقالت:

– نعم، كنت قد ضحيت بتمثالى المفضل، وعلى ذلك، فلم تعد للتماثيل الأخرى أية قيمة فى عينى. فطلبت من خادمتى أن تذهب لتبيعها لأحد تجار التحف القديمة. إن مكانها لم يعد هنا.

وابتسمت لى «سيبيل جينيدين» فى رقة .

وبعد أن أستأذنتها، رحت أهيم طويلاً فى طرقات المدينة الصغيرة. وبعد ذلك وجب على أن أفكر فى العودة. ولما كان العم قد علم بزيارتى للآنسة «جينيدين»، فقد كان فى انتظارى على رصيف المحطة فى صحبة زوجتى. ومضت عدة لحظات قبل ن يجرؤ على اخبارى بسبب حضوره إلينا. لقد اعترف لى أن صورة تلك السيدة العجوز، كما وصفتها له، وهى تعيش وحدها مع ذكرياتها قد أثرت فيه تأثيراً شديداً حتى أنه يريد الآن أن يعرف، عن طريقى، الجو الذى تعيش فيه. كنت لا أزال تحت تأثير زيارتى للآنسة «جينيدين»، فكنت مفعماً بالانطباعات الحية، وبمساعدة خيالى، رسمت له المدينة الصغيرة .

كنا معاً نسير فى الطرقات الضيقة التى كانت تؤدى إلى المنزل الساكن، وطفنا حول البئر القديمة ذات الشكل الأثرى، وانحنينا على حلقتها ونحن نمس الحجارة التى تكون ملتهبة فى الصيف، وباردة فى الشتاء، والتى لايستطيع أحد أن يجلس فوقها. كان ميدان السوق يمتد أمام عيوننا، بحوانيته الصغيرة الجذابة، ذات النوافذ التى تلمع تحت أشعة الشمس، وفجأة أدركت الشعور الذى أبقانى طويلاً مشدوداً إلى كل تلك الأشياء. وكانت المنازل العسلية اللون أشبه بفتيات يرتدين الزى الوطنى، ويرقصن فى دائرة وقد تشابكت أيديهن، وثبتن على هذا الوضع الرائع بتأثير السحر، ولقد كنت متألماً حقاً لأن ما قامت به السيدة العجوز من بيع التماثيل وقطع صلتها بحياتها الغابرة، قد أفسد بعض الشىء تصورى للمدينة الصغيرة. ولقد حزن العم نفسه وهو ينصت لى .

خلال الشهور التالية، كنت أعمل كالمجنون، لا أكاد أدرك الزمن الذى كان يمضى حثيثاً. وفيما بعد، أخبرونى أننى استعدت مقدرتى فى التصوير .

ولم نعد نسمع شيئاً عن العم، ولأقلها بصراحة، إننا لم نكن نستوحش له، وبعد موته، تلقينا وصية من نوع غريب، صندوقاً

يحتوى على جميع التماثيل الخزفية التى كانت تملكها الآنسة «جينيدين». وكان مرفقاً بها خطاب يقول: «إننى لم أنظر فى حياتى إلى أى ذكرى باعتبارها شيئاً مقدساً، ولم أسع قط لأن أظل حياً فى ذاكرة أى إنسان. كان الماضى بالنسبة لى شيئاً لا أكترث له، المستقبل وحده كان يستهوينى، ولهذا السبب لم أعرف فى حياتى أى إنسان معرفة حقة. وخلال سنوات حياتى الأخيرة، تألمت لهذه الحالة. لأن وحدتى كانت تبدو أسوأ من الموت. لذلك قمت برحلتى الطويلة إلى المدينة الصغيرة، مدينة(...) واشتريت كل هذه الأشياء التى تمثل ذكريات حب قديم، واعتقد أنكم متلهفون لاستقبالها، وكما أدركتم، إنها تماثيل الخزف التى كانت تملكها الآنسة العزيزة التى ظلت تحتفظ بى طويلاً فى قلبها.»

إن التماثيل لاتزال موجودة فى أحد أركان المسكن، ولقد قررت زوجتى أن من الواجب أن أقوم بزيارة الآنسة وأخبرها بنبأ الوصية التى تلقيناها، فمن المؤكد أن هذا سيدخل السرور على قلبها ويملأ حياتها، وفى النهاية سافرنا إلى المدينة الصغيرة الحبيبة .

ولقد تأثرت العجوز لقصتنا تأثراً بالغاً، ورأيت دموعاً كبيرة

تسيل فوق خديها المغضنتين. فنهضت في عسر وصعوبة. وراحت وعيناها مبللتان بالدموع تتحسس بيدها باحثة عن منديل، مع أنه كان ثمة منديل فوق كرسى، في متناول يدها. وتزعم زوجتى أن هذا المنديل الذى كانت الآنسة «جينيدين» تحتفظ به بالقرب منها باعتباره شيئاً عزيزاً كان منديلى، ذلك المنديل الذى كان فعلاً ناقصاً من دستة مناديلى .



الشقيقـــان

مارسيل إيميه

(فرنسا)

كنت أعمل أمين سر عند السيد الفريد ليجيندوم، ذلك العالم الكبير الذى كان يدفع لى ثلاثمائة فرنك شهرياً، كان قد كرس حياته فى دراسة ظاهرة تدهور استعمال إحدى الحالات الصرفية فى قواعد اللغة اللاتينية .

حينما بلغ الثانية والسبعين من عمره، كان قد جرب ثلاثة وأربعين فرضاً، غير أنه كان يقول إنه على وشك الوصول إلى الغاية، والحقيقة أن مبلغ الثلاثمائة فرنك يعتبر راتباً ضئيلاً فى الشهر، ولكن الحقيقة أيضاً أن البريد الذى كنت أتولى أمره لم يكن ضخماً .

لم يكن السيد ليجيندوم يراسل سوى شخصين اثنين: ابنة عمه الشابة، وكان يرد عليها بنفسه، ثم محصل الإيرادات .

وذات صباح وصل المكتب خطاب من أمريكا ففتحته وقرأت فيه ما يلى :

أخى العزيز : ها قد مضت سبع وأربعون سنة على فراقنا،

وفى تقديرى أنها قرن كامل، فإلى اللقاء قريباً، أخوك الحبيب : جيروم.

وضعت الخطاب بين البريد اليوم، وقدمته إلى سيدى الذى بادرنى بقوله :

– يا سيد بيرونيه، وصلنى أمس خطاب من زولا ابنة عمى. تخبرنى أنها ستصل مساء الأحد. فبلغ السيدة هوريتشس بأن عليها أن تقوم بإعداد غرفة النوم الوردية، ولكن قل لى يا سيد بيرونيه، أين وصلت فى تنظيم وتصنيف مراسلاتى، هل هى على مايرام ؟

– أجل يا سيدى، وبالمناسبة، كنت أنوى أن أسألك عن إمكان فتح ملف جديد، لأننى تسلمت قبل قليل خطاباً من شخص ليس من ضمن مراسليك المعتادين.

وقدمت إليه بريد اليوم، فاطلع عليه .

– آه، آه، خطاب من أخى الصغير الذى كنت أعتقد أنه مات قبل أربعين عاماً، بدليل أننى ورثت عنه مبلغاً هائلاً من المال، كان قد عهد به إلى محاميه أو موثق عقوده، ولابد أن لديه مايستند عليه قانونياً للمطالبة باسترداد ماله. ما رأيك؟

– أعتقد فعلاً .....

– أليس كذلك، إذن لابد أن نأخذ من اليوم احتياطنا، وطبعاً أنت تفهم الآن مايجعلنى مضطراً لتخفيض راتبك. وبما أننى كنت أنوى أن أمنحك زيادة، فسأكتفى بخصم خمسين فرنكاً من راتبك الشهرى.

– آه يا سيدى ...

– كلا، كلا، لا تشكرنى، الحقيقة أنك كنت تستحق هذه الزيادة .

وفى يوم الأحد التالى، كنت فى حجرتى حينما سمعت قهقهة عالية تدوى فى أركان المنزل، فخرجت إلى بسطة السلم، وانحنيت على الدرابزين لألقى نظرة على الدهليز، فسقطت من يدى صابونة الحلاقة التى كنت أمسك بها، وسقوط صابونة الحلاقة أمر من الأمور العادية جداً بالنسبة للصاعقة .

ذلك أن (زولما) ابنة عم سيدى كانت غاية فى الجمال، ولم أكن قد أمعنت فيها النظر وأنا أقف على بسطة السلم، أما بعد ذلك بربع ساعة فقد تحققت من صفاء بشرتها ونضارتها وسحر عينيها الواسعتين اللتين تثيران نوعاً من الاضطراب لا أدرى كنهه، أما شعرها فمع قلة غزارته إلا أنه كان مشدوداً معقوصاً بحيث يبرز أنفها فى خط مستقيم، وأما مشيتها فكانت لينة وزاد

من لينها مايعتريها من عرج بسيط .

وقال السيد ليجيندوم وهو يقدمنى إليها:

– زولما، هذا السيد بيرونيه، مستخدم عندى .

فاعترضت قائلاً :

– سيدى، أنا لست مستخدماً عندك، بل أنا أمين سرك، هناك فارق، بالنسبة لى أنا الحساس لدقائق الأمور وبالذات موضوع الكرامة، فالأمر مهم جداً بحيث لا أستطيع أن أعبر عن ذلك، وكنوز الدنيا بأسرها لا يمكن أن تجعلنى مستخدماً عندك .

كانت زولما تنصت لى بكل انتباه وجدية فاغرة فاها بشفتيها الورديتين، وأدرك السيد ليجيندوم أنها لاتقره على تصرفه، الأمر الذى أسخطه، فأردف قائلاً :

– يا سيد بيرونيه، إنى أعلنك بأن تبحث لك عن عمل آخر .

فما دامت زولما ستبقى عندنا عاماً كاملاً، فهى ستتولى مهام عملك.

فاعترضت زولما معلنة أنه لاينبغى أن يعتمد عليها فى ذلك، وكانت تتكلم بحرارة وحساسية مما أحرج السيد ليجيندوم الذى أضاف من فوره :

– ليكن، فلتبق فى خدمتى، ولكن مادمت أحتفظ بك بالرغم

منى، فإننى سأخصم منك الزيادة التى منحتك إياها وعلى ذلك، وابتداء من اليوم سأدفع لك مائتى فرنك فى الشهر .

إن الأحبة يعيشون على الخبز الجاف، وقد وطنت نفسى على ذلك.

ولقد عكفت كل صباح على أن أضع بباب زولما باقة صغيرة من الأزهار، وكنت أرفق هديتى بعبارة لطيفة كانت غالباً من الشعر، ولم ألحظ على زولما أية بادرة سرور لما أقدم لها، وذات صباح وأنا أمر أمام حجرتها، فوجئت بالسيد ألفريد ليجيندوم يزج بنفسه من فتحة الباب حاملاً باقة أزهارى بين يديه قائلاً :

– عزيزتى، لقد أسرعت بحمل هذه الأزهار إليك لتحيتك حال نهوضك من النوم، ولكن ها هى ذى قد أصيبت بالذبول إذا تأملت أزهار شبابك الغض .

وفى اليوم التالى ، اعتقدت أن من الواجب أن أسلم أزهارى لزولما بين يديها، وبعد دقائق استدعانى السيد ليجيندوم فى مكتبه وقال لى بلا مقدمات :

– لقد قررت أن أطردك .

فقلت:

– سيدى – وشعرت بالرغبة فى أن أغرز قلمى فى عنقه –

سيدى – أنت تعرف مدى إخلاصى فى خدمتك، ولكن إذا كنت قد قصرت فى أداء عملى بوصفى أميناً لسرك، فلتكن مشيئتك، إننى سأغادر البيت داعياً الله أن يبارك آخر نظرياتك العلمية، ومع كل فثق أننى على استعداد لتصحيح خطئى، وإذا شئت أن تعود فى قرارك، فستجد أن كل شىء سيعود إلى مجراه ابتداء من صباح الغد .

– يا سيد بيرونيه، أنا آسف لأنه لم يعد بيننا ذلك التفاهم الذى كان سائداً خلال الأعوام الماضية، وإذا أردت أن أعيدك للعمل فلن يكون ذلك إلا بتخفيض راتبك إلى النصف، بالنسبة لشاب حسن السير والسلوك، فإن مائة فرنك تعتبر مبلغاً معقولاً.

وفى أواخر شهر نوفمبر، وصل خطاب آخر من شقيق السيد ليجيندوم يعلن فيه عن وصوله خلال الأيام الأولى، من ديسمبر.

وهنا قال سيدى :

– الخطر يقترب، لذلك فأنت ترى أن المصلحة تقتضى أن أخفض راتبك إلى خمسة وسبعين فرنكاً فى الشهر. فأمام الخطر الذى يتهددنا ينبغى أن نربط الحزام .

وصرت إلى حال يرثى لها من البؤس والعوز، ولم أعد أضع أمام باب زولما سوى بعض أزهار البنفسج الرخيص مما عكر

مزاج السيد ليجيندوم .

وذات صباح عكفت على العمل بكل نشاط،وبعد عشر دقائق كنت قد فرغت من الأعمال التى كنت قد قدرت لها عشرة أشهر، حينئذ أمكننى أن أفكر فى الانتحار فى راحة وهدوء .

ولما كان الجو صافياً والشمس مشرقة، لم أجد أجمل من أن ألقى بنفسى فى البحر من فوق صخرة مرتفعة بارزة. ولما أخذت القرار قمت بكتابة طقطوقة من الشعر موجهة إلى زولما، كذلك كتبت خطاباً من مجهول إلى مفتش الشرطة أتهم فيه السيد ليجيندوم بقتل أمين سره بطريقة غادرة وإلقاء جثته فى البحر. وفى نحو التاسعة والنصف، غادرت المنزل من باب خفى لأنفذ خطتى.

كانت ثمة نسمة عليلة تهب من الجنوب وغيوم خفيفة تحجب قمة الصخرة التى نويت أن ألقى نفسى من فوقها. وحينما بلغت قمة المرتفع، تملكتنى رعدة لم أستطع أن أكتسها وكان ثمة رجل عجوز يشرف على البحر من أعلاه وينظر إلى الهوة بمنظار مكبر، فاقتربت منه وسمحت لنفسى وأخبرته بأننى أنتهز هذا اليوم الجميل من شهر ديسمبر لكى أنتحر، فلمس العجوز قبعته، ودون أن يتحول عن تأمله، أجابنى بأدب قائلاً :

أرجو ألا يزعجك وجودى يا سيدى، كل ما أرجوه منك أن تسمح لى بمشاهدتك .

شعرت بارتياح لسماع هذا الكلام من العجوز، وتراجعت بضع خطوات لأهيىء نفسى للقفز. حينئذ أخرج العجوز من جيبه رزمة كبيرة من الأوراق المالية فئة الآلف فرنك وسحب منها ورقة، ورفعها فوق رأسه، ثم تركها فى الفضاء.

فحملتها النسمة قليلاً ثم سقطت نحو البحر بطيئاً بطيئاً. وهنا نمت عن العجوز حركة ضيق، ثم سحب ورقة أخرى وفعل بها مافعل مع الأولى، ثم ورقة ثالثة، فرابعة، فخامسة. حينئذ أجلت انتحارى دقائق لكى أسأل هذا المهرنه عن الهدف من وراء هذه التجارب الباهظة التى يقوم بها، فرفع العجوز منظاره المكبر ومسح عنه بخار – أنا أبحث عن مصدر الريح .

– إنه يأتى من الجنوب الغربى يا سيدى، ولكنه فى المساء سيغير اتجاهه، فانظر إلى قرص الشمس بانعكاساته الحمراء، إنه وسط السماء أشبه بطست كبير للمربى .

– شكراً أيها الفتى، وعفواً إن كنت تسببت فى تأخير انتحارك، إنى أترك لك مكانى.

ورفع قبعته ومضى سريع الخطى نحو أسفل المرتفع

فأسرعت وراءه .

– سيدى، لقد أخبرتك باتجاه الريح فادفع لى أجرتى، ألف فرنك.

فثبت العجوز منظاره وراح يتأملنى من أخمص قدمى حتى أم رأسى باحتقار شديد.

– أيها الفتى، إن أسعارك باهظة للغاية. صحيح أنك أطلت إقامتك بضع دقائق فى وادى الدموع هذا من أجلى، ولكننى لم أسألك رأيك، وأعتقد أننى أكون كريماً جداً إذا أعطيتك عشرة فرنكات، مقابل تلك الاستشارة البسيطة .

– ليكن، أوافق على منحك هذا التخفيض، ولكن هل فكرت فى أنك رجل عجوز، وأنه ليس هناك شاهد علينا وأن جيبك الذى به المسدس ليس من السهل الوصول إليه ...

– هذا صحيح، لم أفكر فى ذلك، ولا اعتراض لى على كلامك.

وهنا سلمنى العجوز حافظة نقوده وساعة معصمه وحفنة من الأوراق المالية، ولم أشأ أن أحتفظ بالأوراق التى تبلغ قيمتها ثمانى مائة ألف فرنك، ومقابل ذلك طلبت منه أن يعطينى المسدس، فوافق عن طيب خاطر، بل وكان لطيفاً إذ حذرنى من

أن السلاح محشو .

– إننى أخبرك بذلك فى حالة ماقد يروق لك هذا النوع من الانتحار.

– الحقيقة أننى أصبحت أعتقد أن موتى الآن سابق لأوانه، فأنا شاب فى مقتبل العمر، وهناك فتاة جميلة أحبها وهى لاتصدني. الواقع أننى لا أفهم كيف اتخذت هذا القرار، أين كان عقلى صباح اليوم؟

فى تلك الأثناء كنا نتجه شطر المدينة ونحن نتبادل الخواطر عن المناظر التى نصادفها، وعلى حين فجأة قال رفيقى:

– بالمناسبة أعطنى عنوان مفتش الشرطة، فأنا أنوى أن أقدم ضدك شكوى ولاداعى لتأجيل ذلك .

– شىء سخيف. كان ينبغى أن تقول ذلك ونحن عند الصخرة حتى أجهز عليك هناك، أما الآن فكيف أفعل بجثتك هنا، أين أخفيها؟

ونمت عن العجوز حركة أسف واعتذر لى عن المتاعب التى يسببها لى بإهماله، ولكننى أخبرته بأننى سأتصرف ولا داعى لكى يزعج نفسه، ثم قبضت على المسدس وسألته إن كان يرغب قبل أن يموت أن يكلفنى بمهمة فى المدينة أو غيرها، فأجاب

قائلاً :

– فعلاً، كنت سأطلب منك أن تمر على المنزل رقم ٣ بشارع تورنبريك وتخبر السيد ألفريد ليجيندوم أنك قتلت أخاه جيروم، وسيعلم السبب الذى جعلنى لم أقم بزيارته كما أخبرته فى خطابى الأخير.

فقلت وأنا أعيد المسدس إلى جيبى :

– آسف جداً لا أستطيع أن أقتلك. إننى أعرف أخاك.

فقال السيد جيروم :

– أنت سيىء الحظ، تخشى على أخى من الصدمة والانفعال فلاشك أنك تحبه كثيراً.

– أبداً، إن أخاك أفاق كبير، شيطان مريد، بل أنا أحب فتاة لطيفة تسكن معه تحت سقف واحد، وهى أيضاً ابنة عمك.

– هل هى جميلة ؟

– آه يا سيدى! إن الوردة فى الصباح، حينما يداعبها الندى لاتكون فى مثل نضارة زولا ولا روعتها ولا رقتها. كلامها يا سيدى، موجات سحرية .

– حسناً، ربما تذهب لتزورك فى السجن.

– كلا يا سيدى، أنا لن أذهب إلى السجن، لأننى سأعيد لك

نقودك. لم يكن ذلك كله سوى دعابة وقد أدركت أنت ذلك الآن، أما أنا فسأعود إلى الصخرة لأضع حداً لحياتى .

وقام السيد جيروم بعد الأوراق المالية، ثم أشعل سيجارة بواحدة منها وتمنى لى حظاً سعيداً، وعدت على أعقابى وما إن سرت قرابة المائة متر حتى صاح العجوز ينادينى، فتركته يقطع المسافة التى تفصل بيننا ثم قال لى وهو يقاوم دقات قلبه:

– أيها الفتى، لقد نسيت أننى مدين لك بعشرة فرنكات مقابل الاستشارة التى قدمتها لى.

وراح يفتش فى جيوبه كلها، ثم أخرج ورقة من فئة الخمسة فرنكات وأربع قطع من فئة الفرنك وأخرى من فئة العشر مليمات وقال:

– كما ترى ليس معى قطع معدنية كافية، ولكن إذا وافقت أن تعمل لى خصماً مقداره خمسون سنتيماً برئت ذمتى.

– لا يمكن يا سيدى، لقد سبق أن منحتك تخفيضاً مقداره ٩٩٠ فرنكاً ولا أستطيع أن أخفض أكثر منذ لك .

فراح العجوز يعض يديه من الحسرة واليأس قائلاً إنه لا يستطيع أن يتحمل أن يكون مديناً لأحد، وتوسل إلى أن أصحبه إلى المدينة ليغير العملة، ويعطينى حقى، زاعماً أنه رجل شريف

وأنه لم يحدث أن أكل مليماً لأحد.

– لايهم، إننى أريد أن أموت قبل غروب الشمس، وأحمل إلى قبرى صورة الأصيل الرائعة .

– أيها الفتى، يمكننى أن أفتح لك باب الحظ .

– أنا لا أريد سوى أن أموت .

– أيها الفتى، يمكننى أن أساعدك فى حبك. بدلة جديدة وساعة جيب ذهبية بسلسلة وعصا من العاج الأصلى يمكن أن يكون لها فعل السحر فى عيون النساء ..

– هزنى اقتراحه وخاصة أنه راح يلح ويزيد فى الإلحاح، وبالذات حينما نطق باسم زولا استسلمت لرغبته، وعند أول دكان أعطانى ورقة من فئة الألف فرنك وطلب منى أن أصرفها، لكننى خرجت من المحل حانقاً:

– سيدى، إن ورقتك زائفة .

– ربما، هذا ممكن، سأعطيك أخرى.

ومن جيب سرى لم أفطن إليه، أخرج حافظة صغيرة وأعطانى منها ورقة من فئة المائة فرنك. وبعد أن دفع لى الخمسين سنتيماً سألنى: هل سأذهب إلى زولا، فقلت من فورى:

– كلا، ليس الآن، لأننى ينبغى أن أذهب إلى الشرطة لأقدم بلاغاً ضد أحد المزورين وهو أنت، أيها الوغد! فعلاً أنت شقيق السيد ليجيندوم، آه! تعمل فى تزوير العملة .

واستدعيت رجلين من رجال الشرطة، وأبلغتهما بالمزور، فقبضا عليه وأخبره أحدهما بأن هذه الجريمة ستفضى به إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة كنص القانون.

وحينما وصلنا قسم الشرطة، فوجئت بالسيد ليجيندوم الذى أعمل عنده يدخل القسم أمامنا يقوده شرطيان وسمعته يحتج بصوت يتميز غيظاً :

– أنا عالم محترم، ولا يجوز لكما ...

وحتى لا أعرض نفسى لطائلة القانون، وأحرم نفسى من متعة التشفى فى سيدى، غيرت ملامح وجهى واتخذت هيئة شخص أبله، بحيث يصعب التعرف على شخصى .

وخرج مفتش الشرطة من مكتبه فى اللحظة التى كان فيها المتهمان يدخلان قاعة الانتظار، وقال موجهاً حديثه إلى سيدى :

– أنت السيد ليجيندوم ؟

فأجاب سيدى قائلاً :

– نعم، أنا السيد ليجيندوم.

وهنا تدخل السيد جيروم قائلاً :

– عفواً، لكن أنا السيد ليجيندوم .

حينئذ أمر المفتش الشرطيين قائلاً :

– فتشا لى هذين الرجلين .

فانقض الشرطيان على جيوب المجرمين وأخرجا منها كل مافيها من أوراق وساعات ومحافظ، وجعل المفتش من هذه الأشياء كومتين ونزع من كل كومة بطاقة وقرأ بصوت مرتفع :

وفى غفلة من حراسهما، اندفع جيروم وألفريد وألقى كل منهما بنفسه فى حضن الآخر.

– أخى، ها أنا ذا أعثر عليك بعد فراق دام سبعاً وأربعين سنة.

وبكى الجميع تأثراً، حتى رجال الشرطة اغرورقت عيونهم بالدموع، وقال الملياردير للعالم:

– أنت لم تتغير تقريباً يا ألفريد، أؤكد لك ذلك، بالمناسبة أنت مدين لى بأحد عشر ألف فرنك ورثتها عنى زوراً ما دمت حياً أرزق.

فاحمر وجه العالم من الاضطراب وقال:

– أبداً، القانون فى صفى، وسأثبت ذلك.

– ليكن، سنلجأ إلى القضاء، فأنا لن أترك لشقيقى الأكبر الفرصة ليأكل مالى .

– آه، وأنت لم تتغير، ولكننى لا أعتقد أنك شقيقى.

وقال مخاطباً المفتش :

– هذا الشخص ليس هو جيروم ليجيندوم، فالواقع أن أخى مات منذ أكثر من أربعين عاماً، والأحوال المدنية سجلت وفاته.

فانفجر المفتش قائلاً للملياردير:

– آه! آه! أنت تزور الشهادات الرسمية ؟

– سيدى المفتش، أنا لا أعلم أن وفاتى سجلت فى الجهات الرسمية.

فصاح العالم قائلاً :

– لقد مات، لا تستمع إليه .

فاستطرد المفتش ساخراً :

– آه، يا للعائلة الكريمة، ميت يزور النقود، وعالم يقتل أمين سره المسكين .

ولدى سماع هذه العبارات الأخيرة لم أتمكن من حبس دموعى، ولكن السيد الفريد ليجيندوم صاح محتجاً على المفتش:

– أيها المفتش، أرى أنك قليل الحياء إذ تجرؤ على توجيه هذه

الاتهامات.

ألا فاعلم أن اسم ليجيندوم اسم له مكانته واحترامه فى عالم الفكر، إن بحوثى فى قواعد اللغة اللاتينية معروفة فى كل المحافل العلمية .

– على أية حال إن جثة هذا الفتى المسكين تم اكتشافها قبل قليل على شاطىء البحر.

وانزويت فى أحد الأركان حتى لا ألفت انتباه سيدى، ولحسن الحظ كان قد نسى نظارته، كما أن الغضب أجهز على بقية بصره، وقال صائحاً :

– أحسن، فهذا الفتى يستغفلنى ويغازل ابنة عمى الصغيرة زولما ليجيندوم.

فقال المفتش :

– ياسيد ليجيندوم، يبدو لى أن الغيرة كانت هى الدافع وراء الجريمة.. تفضل فى مكتبى.

حينما غادرت قسم الشرطة، كانت أول فكرة راودتنى هى أن أزور زولما.

كان الليل قد أسدل أستاره، فاقتربت من البيت خفية، وكان الطابق الأرضى مضيئاً، ولمحت فى مكتب السيد ليجيندوم

حبيبتى زولا جالسة، ويبدو أن خبر موتى كان قد بلغها لأن وجهها كان يبدو شاحباً حزيناً. وكان ثمة صديق للعائلة، ولاح لى أنه يحدثها عن الفقيد لأننى لمحت ابتسامة غامضة تشرق على وجه زولا.

وحملت معى هذه الصورة المشرقة إلى أمريكا التى سافرت إليها فى مساء اليوم نفسه أبحث عن عمل فى مطعم أو فندق ككل من يريد أن يصبح ملياردير اً .

ولكن شوقى إلى زولا جعلنى أعود بعد ستة أشهر قبل أن أكون ثروة طائلة .

وما إن نزلت من الباخرة حتى أسرعت إلى منزل السيد ليجيندوم فإذا بحبيبتى زولا ترتق بعض الجوارب.

فأخذتها بين ذراعى بقوة، الأمر الذى ضايقها، وقال:

– ما أغرب هذا من ميت!

وانتابنى شعور قوى بالغيرة والحنق فصحت بها قائلاً :

– زولا، لمن هذه الجوارب؟

– لزوجى .

– يا للعنة! لقد كنت أحبك.

– تخبرنى بذلك الآن، لقد فات الأوان، ثم على أية حال أنت

كنت موظفاً بسيطاً، أنا هنا فى بيتى، ابن عمى الفريد ليجيندوم ترك لى كل ما يملك. إن عمى المسكين..

– صحيح إنه حكم عليه ؟

– لقد شنق بالمقصلة صباح أمس .

– وأخوه ؟

– برئت ساحته، وهو الآن فى أمريكا ملك العملة المزيفة، ولكن إذا أردت رؤيته يمكنك أن تصعد، فقد أجرت له الحجرة التى كنت تشغلها فى الطابق الأول .

– وداعاً يا زولما، لقد تحطم قلبى، ولكن المستقبل حافل بالأسرار.

وفى الطابق الأول وجدت السيد ليجيندوم الصغير مستغرقاً فى دراسة خطة لإصدار عملة بلغارية مزورة، فاعتبرته لصاً وطالبته بالتعويض لما أصابنى من جراء عدم وفائه بوعده فى مساعدتى فى الحصول على زولما.

– لقد تبخرت كل أحلامى، ولكننى سألجأ إلى القضاء .

– مستحيل أيها الفتى، فأنت تعلم جيداً أننا فى حكم الأموات أنا وأنت .

ولكن بما أننى إنسان نزيه فيما يتعلق بالمعاملات، فإننى

أقترح عليك أن تعمل عندى فى منصب مراقب العملة المزيفة التى أصدرها فى أمريكا الشمالية، لقد كثر التزييف اليوم بحيث فكرت أن أفتح هذا الفرع الجديد.

وعلى الفور وقعت على العقد، ولم تمض ستة أشهر حتى دخلت أحد السجون الأمريكية الكبرى لأقضى فيه عشرين عاماً، وحينما خرجت منه بعد سبعة عشر عاماً وثلاثة أشهر، كان يحدونى الأمل فى أن أجد زولما أرملاً .

دين قديم

يازوشي إينو

(اليابان)

فى الساعة الثالثة من ذلك اليوم، كان «سينجيرو ساكو» فى مطار «إيتامى» لسيتقل الطائرة إلى طوكيو .

كانت الأيام الثلاثة التى قضاها فى «أوزاكا» حافلة بالأعمال. وكان فندق «طوكيو»، وسط المدينة، معروفاً بضخامته والسرعة التى تم بها تشييده على اثر انتهاء الحرب، وكان ذهاب صاحبنا وإيابه فى ردهة الفندق، وهو واثق من نفسه، أحرى بأن يثير غيرة النحلة النشيطة فى فصل جمع الغذاء .

كان قد تلقى ثمانى زيارات، وزار ستة أشخاص فى مختلف مقار الشركات وفروعها وإداراتها، وحضر أربع سهرات، وأثنى على المزايا التى تتمتع بها الكراسى التى تقوم شركته بصناعتها، وشرح المبادئ التى تقوم عليها شركته وتحدث عن مستقبلها .

وفى اليوم الرابع لم يعد لديه ما يفعله، فتناول الغداء فى هدوء فى أحد أركان مطعم الفندق .

وسأل مدير الفندق قائلاً :

– من أين جاء هذا البطيخ ؟

كان «سينجيرو ساكو» أشيب الشعر فى نحو الستين من عمره .. وكان نشيطاً، محباً للنظام، ولقد قام بواجبه خير قيام، وكان راضياً عن الناس. وأول مرة كان بوسعه أن يتحدث فى موضوعات لا علاقة لها بالأعمال :

– من «كوبيه»، على ما أظن .

– إنه أصفر جدا. لابد وأن السبب يعود إلى التسميد. كان يجب أن يكون أكثر نضجاً .

ليس ذلك لأنه كان يهتم بصفة خاصة بالبطيخ. وما إن انصرف مدير الفندق، حتى أخذ منه قضمة كبيرة، فراح البطيخ اللذيذ المفعم بالعصارة يذوب فى فمه .

وما إن انتهى من الغداء، حتى خرج إلى الردهة، وأشعل سيجارا، ثم أخرج مفكرته من جيبه الداخلى. وكانت كل عبارة فى القائمة مشطوبة بخط أحمر. فقد أنجز كل شىء. وفى الخريف سيقوم بافتتاح فرع لمصنعه فى «أوزاكا». لكى يغطى السوق فى منطقة «كانزيه» ونظر فى ساعته. كانت الثانية عشرة والنصف ظهراً. إن حافلة المطار تخرج من أسفل المدينة قبل رحيل الطائرة بساعة تقريباً. فلا تزال أمامه ساعتان .

وعاد فصعد إلى حجرته، ووضع ماكينة الحلاقة وفرشاة الأسنان، وبعض الحاجيات الأخرى داخل حقيبته، ثم أغلق الباب ونزل إلى مكتب الفندق ليسدد الحساب، وكان قد عزم على قضاء هاتين الساعتين فى نزهة على طول نهر «دوجيما» الذى يخترق وسط المدينة، بالقرب من الفندق .

وكان ثمة طريق محفوف بالأشجار مزدحم بالعجلات والسيارات يسير بحذاء النهر، وأسفل منه قليلاً وعلى الشاطئ، يوجد ممر ضيق ينزل فيه المتنزهون فى المساء أزواجاً أزواجاً. أما فى النهار، فيكون خاليا كأنما قد نسيته المدينة، وبعد عشر دقائق، كان «سينجيرو ساكو» يتمشى على طول هذا الممر. ولم يكن يبدو فى الأفق متنزهون آخرون .

كانت ظلال أشجار الصفصاف المغروسة على مسافات متساوية بطول الطريق العلوى، تسقط فى خطوط متشابكة على الممر. وفوق النهر كانت تطفو بعض المخلفات، إلا أن شمس مايو كانت تعكس أشعتها على سطح الماء فى نقط من الضوء أشبه بأصداف السمك، وكانت النسمة منعشة. فى ذلك الحين قابل صاحبنا الرجل ذا الندبة .

كان وجهه عادياً، فى نحو الأربعين من عمره، وكان الرجل قد

نزل إلى الممر، على بعد بضعة أمتار من «سينجيرو ساكو»، مستخدماً أحد السلالم الحجرية التى كانت تقوم على مسافات متباعدة وتفضى إلى الشارع العلوى، ولكنه كان بالنسبة «لسينجيرو ساكو» كأنما قد هبط من السماء .

وتقدم الرجل ذو الندبة فى بطء نحو «سينجيرو ساكو» الذى تنحى جهة النهر ليفسح له الطريق .

كان القادم الجديد يبدو منهكاً قد استنفده العمل والهم. فلم يتنبه لوجود «سينجيرو ساكو». ومضى، وهو حانى الظهر قليلاً. خافض العينين، دون أن يتطلع إليه .

ولكنه قبل أن يتقدم خمس خطوات، التفت «سينجيرو ساكو» خلفه فجأة، وتراجع خطوة إلى الوراء وصاح فيه قائلاً :

– عفواً ! أنا أعلم أنها قلة ذوق من جانبى، ولكن ألم تكن يوماً فى مدينة «أكيتا»، قبل عشرين عاماً ؟

فرمقه الآخر لحظة بارتياب. ثم قال بغشم الشخص الذى لم يتعود على آداب اللياقة ومقتضيات الذوق :

– أكيتا ؟ نعم، لقد عشت فيها عندما كنت شابا. أنا مولود فيها .

ولقد بدا عليه الضيق قليلاً بسبب هذا السؤال الدخيل، ولكن

مما لا شك فيه أن الندبة التى بوجهه كانت تساهم فى خلق هذا الاحساس. فيبدو أن وجهه كان دائماً يوحى بتعبير يشوبه القلق والارتياب .

– آه !

صرخة مكتومة، شديدة، أطلقها «سينجيرو ساكو»

– هو ذلك إذن. أعلم أنه سبق لى أن رأيتك. كنت أفكر فيك طوال تلك الأعوام العشرين. وكنت أتمنى دائماً أن أراك مرة أخرى. لقد قابلتك فى «اكيتا» وأنقذت أنت حياتى. لا تؤاخذنى، ما اسمك ؟

– «تاكيزو كيكوشى». ولكن لابد وأنك مخطئ .

كرر «سينجيرو ساكو» الاسم كما لو كان اسم صديق حميم. ثم بذل مجهوداً ليهدئ من روعه. وكان يتساءل كيف يبدأ .

فى إحدى ليالى ديسمبر، قبل عشرين عاما مضت، كان «سينجيرو ساكو» يتنزه فى شارع صغير منعزل من شوارع «أكيتا» وفى رأسه أفكار عن الانتحار. كان يعمل فى «أكيتا» فى أحد فروع شركة صناعية فى طوكيو. واستخدم أموال الشركة فى المضاربة على أخشاب البناء، وانتهت المضاربة نهاية غير محمودة، فأصبح مطاردا من الدائنين، ومهدداً باكتشاف

الاختلاسات، وأغلقت فى وجهه كل السبل .

صادف ذلك أيام الاحتفالات التى تقام فى نهاية العام، ومضى صاحبنا، تحت الجليد الدقيق، يسير بلا غاية خلال المدينة فى شارع رمادى اللون، وقد ضاق عليه الخناق وهو بين الحياة والموت. وكان سيختار الموت لولا أنه فكر فى زوجته الشابة التى لم تكن حتى لتعلم شيئاً عن مشكلاته. هذه الفكرة وحدها كانت تحتجزه على شاطئ الحياة.

« ياللراحة التى سألقاها فى الموت ! يا للراحة !...».

هذه اللازمة السوداء، كان يرددها فى هدوء، فى قرارة نفسه. ولكنه إن مات أصبحت زوجته بلا مورد .

– عفواً ؟ هل معك كبريت ؟

فعاد «سينجيرو ساكو» إلى نفسه. ونقب فى جيبه. كانت كرات دقيقة من الجليد تتراقص داخل دائرة النور التى كان يرسمها عود الثقاب ومصباح كان يحمله الرجل الذى اعترض سبيله .

وحدث «سينجيرو ساكو» نفسه قائلاً : «لابد وأننى أهيم تحت هذا الجليد منذ ساعات». وأعاد الرجل إليه علبة الثقاب .

– شكراً !

ولما مضى الرجل الآخر، وهو مائل قليلاً إلى الأمام، ظهر وجهه فى دائرة الضوء التى كان يرسمها المصباح. رأى «سينجيرو ساكو» باشمئزاز أن جانباً من وجه الرجل مشوه بصورة بشعة بسبب ندبات خلفها حريق قديم. كان الرجل فى ريعان شبابه، وكان يرتدى زى موظف بالسكة الحديدية. وعندئذ لاحظ «سينجيرو ساكو» أنه يسير فى شارع شبه مهجور وراء المحطة. فقد كانت هناك أسلاك مرتفعة تسير بحذاء أحد جانبى الشارع، وسمع «سينجيرو ساكو» صوت صفارة بعيدة لإحدى قاطرات السكة الحديدية .

كان المصباح ينير بضوء شديد مخزنا للبضائع، بدأ الشارع من بعده يتفرع إلى اليمين والى اليسار، وكان «سينجيرو ساكو» وهو يحدق فى النور الذى كان يبتعد يتساءل عن الوجهة التى سيتخذها نور المصباح الذى كان يحمله الرجل ويقول فى نفسه : «إذا اتجه إلى اليمين سأنتحر، أما إذا اتجه إلى اليسار فسأواصل الحياة» .

إن الطريق الذى كان سيتخذه النور لم يكن فى ظاهره ذا أهمية على الأطلاق. ولكنه كان يركز نظره عليه فى اللحظة التى كان يقترب فيها وهو يرتجف من مفرق الطريق وانعطف النور

إلى اليسار واختفى مع البعد شيئاً فشيئاً .

فقال «سينجيرو ساكو» لنفسه «إذاً، يجب أن أواصل الحياة». ولكن هذا القرار كان مصحوباً بنوع من السأم عندما تذكر العذاب الذى سيظل يلازمه .

ومع ذلك فإن نبذه لفكرة الموت فى تلك الليلة هو الذى جعله يتغلب على الصعوبات ويحصل فى نهاية المطاف على هذا المركز المحترم بعد عشرين عاماً من الحادث .

لقد أصبح رجل صناعة من الطراز الأول، وعندما كان يذهب إلى المسرح أو إلى أحد المطاعم، كان يجلس فى كرسى موسد – يحمل العلامة المميزة لشركته. لقد أصبح قوة . وكان من الواجب أن يكون فى عداد أعضاء الغرفة التجارية .

وكان «سينجيرو ساكو» يحب أن يروى هذه القصة. كان يرويها بانفعال وحماسة فى أغلب الأحيان حتى إن الأصدقاء كانوا يبادرونه قائلين :

– إذن، سنسمع مرة أخرى قصة الرجل ذى الندبة !

ولكن زوجته لم تكن تمل من القصة التى كانت تنتهى دائماً بهذه الكلمات :

– وكانت فى وجهه ندبة فظيعة .

وكانت زوجته تكرر هذه العبارة :

– إنك مدين بالكثير لهذا الرجل. هل تعرف كيف أصبح الآن؟

– إننى أود أن أعثر عليه مرة أخرى .

– لو حدث هذا ، فلابد وأن تكافئه بأية وسيلة .

كانت زوجته امرأة ضخمة، تكرس حياتها لأعمال الخير، وكانت خير جمهور له .

ومما لا شك فيه أن «سينجيرو ساكو» قد قام بعملية بحث محدودة داخل «أكيتا» ولكنه لم يعثر مطلقاً على أثر للرجل ذى الندبة. أما بالنسبة لزوجته، فإن هذا الاختفاء التام أضفى على القصة طابع الغموض الذى يزيد من إثارتها .

ولكى يروى قصته هذه، كان «سينجيرو ساكو» قد جلس على درجات السلم الحجرى المؤدى إلى النهر الذى كان مجراه العريض يمر أمامه فى هوادة . أما الرجل المسكين، الذى كان منقذه فيما مضى، فقد كان يجلس إلى جواره .

– إننى أود أن أفعل شيئا من أجلك إن استطعت .

كان «سينجيرو ساكو» يكرر الجملة التى قالها وأعاد قولها سنوات بأكملها لزوجته ولأصدقائه .

أما بالنسبة «لتاكيزو كيكوشى، فقد كان الموقف ضربا من الوهم أو الخيال، فلم يكن بوسعه أن يصدق ما كان يحدث له، وكان يتساءل إذا كان لا ينبغى عليه بكل بساطة أن ينهض وينصرف إلى حال سبيله .

كان قد غير من مهنته نحو اثنتى عشرة مرة منذ بدأ حياته فى سكة حديد «أكيتا»، ولكن ما من تغيير من هذه التغييرات جلب عليه السعد، وهو الآن، سمسار تأمينات، يكسب بالكاد ما يضمن لأسرته المسكن والمأكل .

وخلال التغييرات المحمومة التَى كانت تطرأ على وظيفته ومحل إقامته، سعيا وراء متنفس فى تلك المعركة التى يخوضها ضمانا لحياته وحياة أفراد أسرته، كان سوء الطالع يطارده. فلم يكن بوسعه أن يفر من تلك النَدبة البشعة التى تشوه خده والتى تقع مسئوليتها على أم مهووسة، وكان مقتنعا بأنه لن يستطيع على الإطلاق أن يفر من سوء الحظ، ومن العمل المضنى ومن الفقر. كان يشعر بأن الحياة لا تتضمن معنى حقيقياً وبأنه لا أهمية لكونه حياً أو ميتاً. وكان يتصور فى بعض الأحيان أنه إذا ترجمت الصرخة التى ترك بها أحشاء أمه، فإن معناها سيكون : «لا أريد . لا أريد» .

وها هو ذا من جاء يخبره بأنه قد أنقذ، دون علمه، حياة شخص آخر، وساهم فى تكوين مركزه المرموق وحياته السعيدة الرغدة .

وراح يتأمل قدميه فى حذائه البالى فلاحتا له وكأنهما قدمان جلبتا الحظ لرجل آخر، ولكنهما لم تصنعا شيئاً من أجل صاحبهما .

وسأله الرجل العجوز قائلاً :

– هل لك أسرة ؟

– زوجة وأربعة أبناء .

– ليس من شأن هذا أن يجعل أمورك سهلة ميسرة. أرجوك، قل لى كيف أستطيع مساعدتك. ضع جانباً كل حرج أو ضيق .

إن «تاكيزو كيكوشى» ينصت الآن بشعور بالأمل يضخم صوت هذه الرؤيا المذهلة. وعض على شفته لكى يتأكد أنه متيقظ فعلاً. وكان يشعر برغبة تدفعه إلى أن يصيح من الفرحة. وبدلا من أن يفعل ذلك، قال متردداً :

– إنها ستندهش عندما تعلم بهذا !

كان يفكر فى زوجته .

وفجأة فكر «سينجيرو ساكو» فى زوجته هو .

– لماذا لا تأتى معى إلى طوكيو ؟ إننى أحب أن أقدمك إلى زوجتى، كنت أنوى أن أسافر إلى طوكيو الليلة .

كان «تاكيزو كيكوشى» ينتظر، فى القريب العاجل، طفلاً خامساً. وكان لابد له من تدبير بعض النقود. وكان يتعشم أن يستطيع اقتراض بعضها من عم له يدير متجراً فى طوكيو. لم يكن هذا العم غنياً. ولكن حالته كانت تسمح له بألا يحمل هم الوجبة القادمة .

– عظيم !

ونظر «سينجيرو ساكو» فى ساعته. كانت تقترب من الثانية .

– سأستقل الطائرة بعد ظهر اليوم. فلماذا لا تأتى معى ؟

– فى الطائرة ؟

لم يكن «تاكيزو كيكوشى» قد سافر بالطائرة أبداً. فكانت فكرة إمكان حدوث هذا الأمر تبدو له شيئاً غريباً، بل خارقاً للعادة .

– إنها تقلع فى الثالثة. هل تستطيع أن تأتى مباشرة ؟

– أخشى ألا أستطيع. فلدى أعمال كثيرة يجب أن أؤديها بعد الظهر .

وفى الواقع. كانت لدى «تاكيزو كيكوشى» أعمال عليه أن

يؤديها. فقد كان عليه أن يطلب يومين إجازة من رئيس عبوس، ويقترض نقوداً من أحد المرابين، ويحمل النقود إلى زوجته .

ونظر «سينجيرو ساكو» فى ساعته مرة أخرى ومكث مفكراً لحظة .

كان نادراً ما يغير جدوله من أجل أى شخص كان، ولكنه سيخرج على القاعدة من أجل منقذ حياته .

ونهض الاثنان. ووعد «تاكيزو كيكوشى» بأنه سيكون فى الفندق فى الساعة الخامسة. وانصرف بخطى أكثر خفة ورشاقة. وكان يشعر مقدماً بأنه يكاد أن يحلق فى السماء .

وتناول رجل الأعمال ومنقذه الغداء معاً فى مطعم الفندق. وكان الغداء بالنسبة «لسينجيرو ساكو» وجبة رائعة لا تتكرر فى الحياة كثيراً. ولم تعد ندبة ضيفه تثير نفوره. بل لقد كان «سينجيرو ساكو» يتصور أن بوسعه أن يعطى «لتاكيزو كيكوشى» عملاً فى مصنعه دون أن يثير بذلك اشمئزاز العمال الآخرين. كان يحدث نفسه ويقول : «كم ستفاجأ زوجتى عندما نظهر أمام الباب» .

كانت زوجته فى هذه السنوات الأخيرة قد فقدت عادة الاندهاش وأخذت فى السمنة كما لو كان هذا هو مشغوليتها

الوحيدة فى الحياة. وأن مفاجأة سارة تفيدها خيراً من كل ما يمكن أن يتصوره .

أما عن «تاكيزو كيكوشى»، فإنه لم يتصور أن تتاح له فى حياته مثل هذه الوجبة مرة أخرى .

ولولا شعوره بالحرج بسبب إحساسه بثيابه الرثه وحذائه البالى لكان فى قمة السعادة .

كان يفكر فى كل ما فقده طوال تلك السنين، وهو يدير ظهره للحياة وللناس. وكانت المشروبات اللذيذة تجعل ندبته تلمع مثل المنارة . وكانت الأطباق التى تتتابع – وأى أطباق، إنه لم ير فى حياته مثيلاً لها – تدير رأسه .

– قد يكون من الواجب أن أبعث ببرقية إلى زوجتى لتعلم بمجيئك .

ولكن سمسار التأمين لم يكن ينصت له، ولم يسمع رفيقه وهو يرسل الغلام بالبرقية، وكان الرجل العجوز يتحدث، ويتحدث، غير أن «تاكيزو كيكوشى»، ومن علياء نعيمه، لم يكن يلاحظ، من وقت لآخر، سوى حركة شاربه الأبيض وكأنها عنصر مكمل لنشوته الذاتية .

وبعد السابعة بقليل، توجها إلى المحطة واستقلا حافلة

المطار.

وألقى «تاكيزو كيكوشى» نظرة إلى السماء وهو يدخل الحافلة فسقطت حبة من المطر على جبينه.

لم تكن هناك رياح، ولكن كانت ثمة سحب تزحف فى اتجاه الشمال الشرقى وسط سماء المساء الجميلة .

كانت الطائرة متأخرة عن موعدها بعشرين دقيقة. ولم يلاحظ «كيكوشى» الوقت الذى أقلعت فيه .

– سنكون فى مطار «هانيدا» بعد ساعة ونصف .

كانت كلمات الرجل العجوز تبدو غريبة عجيبة. فإن أعباء كل هؤلاء الأبناء لم يمكن «كيكوشى» مطلقاً أن يسافر فى مجرد قطار سريع .

وانقضت الساعة والنصف .

وأنارت العلامة التى تدعو إلى ربط أحزمة المظلات، إلا أن الطائرة لم تتهيأ للهبوط.

فقال «سينجيرو ساكو» :

– يبدو أننا تأخرنا قليلاً .

ثلاثون دقيقة مضت وما من علامة تبشر بالهبوط. ونظر من النافذة الصغيرة . لم يكن يظهر تحت الطائرة إلا امتداد مظلم

للبحر. ونظر فى ساعته عدة مرات وبدأ يشعر بقلق غامض.
فأوقف المضيفة الجوية الشابة عندما خرجت من حجرة القائد
وسألها :

– ماذا حدث ؟ لقد تأخرنا، أليس كذلك ؟

– إننا لا نستطيع أن نهبط بسبب السحب، ولكننى لا أعتقد
أن هناك ما يدعو للقلق.

إن اجابتها التى كانت أميل إلى الالتباس قد ثارت قلق
«سينجيرو ساكو». كان يبدو أن هناك مغزى وراء عدم قولها بكل
بساطة : «ليس هناك ما يدعو للقلق» .

– هل ظللنا طوال الوقت نحوم فوق «هانيدا» ؟

– نعم يا سيدى.

– عظيم. ولكن يبدو أن هذا الوضع سيجلب علينا المتاعب .

وبدأ يندم على تغيير جدوله .

وإلى جواره، كان «تاكيزو كيكوشى» مكتئباً منحرف المزاج .

ونظر من النافذة فوجد أن المروحة الخارجية لم تعد تدور .

لقد توقف أحد المحركات فهم لا يستطيعون الهبوط .

وانقبض قلبه عندما أدرك معنى ذلك .

وراح الاضطراب والقلق يسيطران على الطائرة . وبدأ

الركاب الأربعون يستشعرون الخطر .

وألقى «سينجيرو ساكو» نظرة على رفيقه. كان وجه «تاكيزو كيكوشى» أبيض من الشحوب وفمه متقلصاً .

لقد لاح «سينجيرو ساكو» وكأنه وجه الهلاك الأبدى، وجه شيطان لسوء الطالع. إن ما حدث كان نتيجة مباشرة لمقابلة اليوم .

وبغتة، قفز شيطان سوء الطالع على قدميه وهو يرفع ذراعيه إلى السماء .

فهدأت المضيفة من روعه. فعاد إلى الجلوس، وسكن فى مكانه وحدث نفسه قائلاً:

«لماذا يحدث هذا ؟ إن حياتى لم تكن سعيدة، ولكن لم يحدث لى قط أن وجدت نفسى مهدداً بخطر ميتة عنيفة . لو تحطمت الطائرة، ومت، فستكون غلطة هذا الشيطان الجالس هنا إلى جوارى . »

ثم التفت ونظر إلى «سينجيرو ساكو» بعينين متوهجتين. فرد له «سينجيرو ساكو» نظرته. وخطر له أنه ليس متأكداً على الاطلاق أن هذا الذى أمامه يمكن أن يكون ذلك الشخص الذى قابله فى «أكيتا» قبل عشرين عاما . وإذا كان هو فعلاً، فما أثر

تلك الانعطافة إلى اليسار على حياته أو موته ؟ فقد كان من الممكن جداً أن يقوم كلب بهذه المهمة، فى تلك الليلة. وراح «سينجيرو ساكو» يلعن سذاجته وطيبة قلبه اللتين قادتاه إلى هذه الكارثة. وانفجر سمسار التأمين قائلاً، وقد عجز عن الاستمرار فى ضبط نفسه :

– إننى لم أكن أرغب فى ركوب أى طائرة !

كانت لهجته قد تغيرت تماماً. وكان وجهه يعطى الاحساس بأنه على أهبة أن ينقض على شخص ما .

وكردّ فعل على هذا الموقف، خلد «سينجيرو ساكو» إلى هدوء بارد كالجليد. وتطلع فى ازدراء إلى شيطان سوء الطالع هذا الذى فقد السيطرة على أعصابه بهذه الطريقة .

ثم حدث نفسه خلسة : «إن مقاعد الطائرة تدفع إلى الأمام وتوحى بعدم الاطمئنان. لو خرجت سالماً من هذا المأزق، فاننى سأتخذ فى المصنع الاجراءات اللازمة لصناعة مقاعد للطائرات، أفضل من هذه المقاعد. ولكن من الجائز أن الأوان قد فات للتفكير فى مثل هذه الأمور. وتحول تفكيره باشمئزاز عن هذا الموضوع .

وبدأت الطائرة تفقد توازنها. فزادت مخاوف الرجل العجوز.

سمع صوت المضيفة فى مكبر الصوت وكأنه صوت ملاك حارس:

– نأسف لإزعاجكم، الطائرة ستهبط فى «هانيدا» بعد خمس دقائق .

أما «سينجيرو» و «تاكيزو» فلم يفتح أيهما فمه خلال الدقائق التالية .

وخرجا من الطائرة وقد افترقا وسط زحام الركاب. وكان «سينجيرو» يبحث بعينيه عن شبح زوجته الضخم بين الجمهور الذى كان ينتظر فى مدخل الردهة. فنادته بمجرد أن لمحته .

– لقد تأخرت ساعة. كنت فى غاية القلق. ولكن أين فاعل الخير الذى أحسن إلينا؟

وراحت تتطلع حولها، متلهفة لرؤية ذلك الشخص الذى تدين له بالكثير .

أما رجل الأعمال العجوز وسمسار التأمين فقد رمق كل منهما صاحبه بنظرة وهما يدخلان الردهة .

وافترقا دون كلمة واحدة .

لقد خيل «لسينجيرو ساكو» أنه فى هذه النظرة الأخيرة رأى شخصاً جديداً كل الجدة، ما من شك فى ذلك. لا المنقذ الذى

تناول معه الغداء فى «أوزاكا» قبل ثلاث ساعات، ولا شيطان سوء الطالع الذى كان جالساً إلى جواره فى الطائرة. لقد رأى ما كان يجب أن يراه منذ البداية : مجرد سمسار تأمينات حقير لا يثير اهتمامه فى شىء. وبالمثل، كان «تاكيزو كيكوشى» يرى فى «سينجيرو» رجل أعمال عجوز لا تربطه أية علاقة بحياته البائسة، وأشاح بوجهه مع رجفة من أهدابه ملؤها الارتياب .

وسألت مدام ساكو مرة أخرى :

– أين هو ... أين فاعل الخير الذى أحسن الينا ؟

كان «تاكيزو كيكوشى» فى تلك اللحظة يدخل الحافلة .

وكان يحدث نفسه قائلاً : «ياله من يوم قذر ! لقد نسيت أن أسترد ثمن تذكرة السكة الحديدية التى اشتريتها قبل يومين.»

المترجـــم

حماده إبراهيم محمد إسماعيل

* كاتب وناقد ومترجم وأكاديمى

* حاصل على دكتوراه الدولة من جامعة السوربون ١٩٧٥

* من مؤلفاته: «المسرح المعاصر من المعارضة إلى الإبداع» و«التقنية فى المسرح المعاصر» و«پانوراما المسرح الفرنسى (الكلاسيكية)»

* من ترجماته : «الأعمال الكاملة المسرحية لأوچين يونسكو» و«الأعمال الكاملة للكاتب المسرحى الفرنسى ألفريد جارى» و«التعبير الجسدى للممثل».

* له عدد كبير من الدراسات والمقالات المنشورة فى المطبوعات الثقافية والفنية فى مصر والكويت والسعودية وفرنسا وإيطاليا .

الفهرست

رقم الايداع : ٢٠٠١/١٦٩٧١

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)